روضات الفردوس

محاورة

بين جيتي ومارى استيوارت وڤولتير ونابليون
وكارل ماركس والرئيس واشنجتن وغيرهم ،
يبحثون فيها شؤون العالم السياسية والاجماعيه والنفسية

تأليف

سلڤادور دى مادارياجا

ترجمة

علي أدهم

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا : بالقاهرة

١٩٤٩

رَوضاتُ الفردَوسْ

محاورة

بين جيتى ومارى استيوارت وڤولتير ونابليون
وكارل ماركس والرئيس واشنجتن وغيرهم ،
يبحثون فيها شؤون العالم السياسية والاجتماعية والنفسية

تأليف

سلڤادور دى ماداriاجا

ترجمة

علي أدهم

ملتزمة النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا . القاهرة

١٩٤٩

مقدمة

معظم كتاب هذا العصر ومفكريه وفلاسفته يرمون بأحواله ناقمون على نظمه ومذاهبه ، وهم يحاولون جهدهم أن يعالجوا مساوئه ويطبوا لأدوائه ، والهدف الذي يرمون إليه هو إنشاء عالم خير من هذا العالم ، وإيجاد إنسان أسمى من الإنسان المعروف ، ولن نبلغ ذلك إلا بتطهير قلب الإنسان من الأرجاس ، وتنقيته من الشوائب ، والسمو بتفكيره وعقله ، والارتفاع به فوق صغيرات الأمور والغايات المسفة ؛ ولكن تغيير قلوب الناس وتبديل عقليتهم وهم فى ظروف مواتية ، وأحوال مساعفة ، أيسر جهداً وأقرب منالاً ؛ ومن ثم العمل على الإصلاح الاجتماعى الذى تتجه إليه جهود الأمم والأفراد فى هذا العصر .

ومن علية الكتاب المعاصرين الذين لهم فى هذا السبيل مكانة ملحوظة وآثار حسان ، الكاتب البحاثة المفكر الإسبانى المولد العالمى النزعة الأستاذ سلفادور دى مادارياجا ، وهو رجل جدير بالالتفات إليه والاستماع لرأيه لصراحته ونزاهة تفكيره وخلوص نيته وعلو نظرته فى وقت كثرت فيه الدعايات المتهمة والأقلام المأجورة ، وذلك فضلاً عن علمه الواسع وملكاته الأدبية الممتازة وتحليلاته النفسية النافذة .

والمحاورة التى أتشرف بتقديمها لحضرات القراء ، أنموذج صالح لتفكير مادارياجا وبيانه العالى وبلاغته الساحرة ، وهى تكشف عن الكثير من آرائه السياسية ، واتجاهاته الاجتماعية ، وفلسفته التاريخية ، ونظراته النفسية ؛ وربما يلمح القارئ شيئاً من العنف[1] الخفى فى عرضه للشيوعية ، ولكنه على أى حال عنف مفكر حر ليس من شأنه أن يتلقف التهم ، ويتصيد المثالب ؛ وغاية ما فى الأمر أن مادارياجا عميق الإيمان بالحرية ، والفرد فى رأيه هو القاعدة والأساس ، ولا يجب فى رأيه أن يكون للنظم الاجتماعية والمذاهب السياسية سيطرة عليه أكثر مما يحتاج إليه لإنماء ملكاته وقدراته ولترقيه وتقدمه ، وهو لا ينكر عدم المساواة ، ويراها لازمة من لوازم الحرية ، وإن كان لا يسيغ التفاوت الكبير الموجود فى النظام الرأسمالى الراهن ، وهو يرى أن الطبقة كامنة فى طبيعة المجتمع ، ومن ثم تحديه الواضح للماركسية ، ومشكلة البشرية عنده ، هى عقدة التوفيق بين الحرية والنظام .

وهو فى هذه المحاورة يرينا ڤولتير الهازل الجاد والناقد الداعب بلوامع كلماته ولواذع نكاته وفكاهاته ورواجم سخريته وتهانفه ، ويمثل لنا جيتى الشاعر الفيلسوف بحكمته العالية

---

(١) وقد تجلى هذا العنف بصورة أوضح فى كتابه الذى كتبه فى أعقاب الحرب الكبرى الثانية وأسماه « حذار أيها المتصرون » .

ونظراته المستوعبة الشاملة وترفعه الأولمبى ، ويبرز واشنجتن القائد السياسى بنفسه الخيرة الصالحة وسماحته الدنيوية السماوية وسياسته العملية المثالية ، ويعرض علينا نابليون بمطامعه الضخمة وطموحه المترامى ، ويستحضر لنا كارل ماركس بآرائه الجازمة ونظرياته الحاسمة ؛ وتمثل الملكة مارى استيوارت جانب المرأة فى المحاورة ببديهتها العميقة وذكائها المتوقد اللماح ؛ وقد حفظ لكل شخصية طابعها الخاص وسماتها العقلية والنفسية ؛ ويخيل إلىّ أن أكرم تلك الشخصيات عليه ، وأخصهم منزلة لديه هى شخصية جيتى ، وقد كان مادارياجا بارعاً فى جعله جيتى منطقياً مع نفسه ومعبراً عن فلسفة حياته فى الوقت الذى أجرى فيه على لسانه بغير ما تكلف ولا اعتساف فلسفته السياسية الخاصة وتكهناته عن المستقبل ؛ والآن أرفع الستار بالنيابة عن الأستاذ مادارياجا لتبدأ المحاورة وتتحدث الشخصيات التى استدعاها من رقادها الأبدى ؟

على أدهم

المنظر الأول

روضات الفردوس تشبه الرياض فى عالمنا الأرضى قد لطف فيها « هذا الجسد » وشف ، وتبدت الأشجار والأشخاص وكأنهما صيغا من النور والهواء ، وأخذت روح جيتى فى إبان نضجه وهو لا يزال فى مقتبل الشباب تهفو فوق المسرح فى خفة ودون أن يسمع لها ركز ، وظهرت روح مارى استيوارت إلى اليسار ، وهى تبسم له وقد غلب عليها الحياء والتردد .

جيتى : تقدمى ههنا يا بنيتى العزيزة ، ولا تخافى .

مارى استيوارت : أنحن فى خلوة ؟

جيتى : ليس هنا غيرك وغيرى ، ولكن ماذا يهم هذا ؟ لا تخشي شيئاً ، ولماذا يتملكك الخوف وأنت الجريئة ؟

مارى استيوارت : آه يا مسيو جيتى ، لست أدرى ، أنا التى لم تخش شيئاً . . .

جيتى : إن الدنيا لم تعرف امرأة أشجع من مارى استيوارت ملكة الإسكتلنديين .

مارى استيوارت : ولكن يا مسيو جيتى وأنت الذى أحاط

علماً بكل شيء . . . لا بأس ، لنقل بأشياء كثيرة ، إنف عنى أسباب الوجل ، لقد خفضت لى جناحك ، وألنت كنفك ، وقد بصّرتنى بأشياء كثيرة عن هذا المكان الذى قضى علينا بالانتظار فيه بين الأرض والسماء ، خبرنى لماذا احتوانى الخوف هنا وأنا التى كنت أستهين بالخطر ؟

جيتى : قد يكون هناك أكثر من سبب واحد ، فالقادمون الجدد جميعهم يخافون بيئتهم الجديدة ، وحينما نستحضر رجلاً وهو فى أحلامه . . .

مارى استيوارت : رجل فى أحلامه ؟

جيتى : فى بعض الأوقات نستحضر روح رجل وهو نائم ، فهو يأتى إلينا حيناً من الزمن ، ويجاذبنا الحديث ، ثم نرده إلى جسده الذى تركه راقداً مستقراً فوق فراشه .

مارى استيوارت : وهو يظن أنه يرى ما يراه النائم ؟

جيتى : نعم ، ولكن أمثال هؤلاء الزائرين الذين يأتون من الحين إلى الحين يغشاهم فى العادة هنا الخوف ، وهذا يفسر جزءاً من خوفك ، فأنت لم تألفينا . . . . بعد .

مارى استيوارت : والسبب الآخر . . . ؟

جيتى : أجيبينى أولا ، أكنت تفكرين فى الخطر حين ضحكت منه ؟ وهل كنت تبصرينه بوضوح وجلاء ؟

مارى استيوارت : أنا . . . لا ، لم أفكر فيه ولم أبصره .

جيتي : أتتذكرين أنك كنت تهابين شيئاً . . . أو أحداً ؟

ماري استيوارت : نعم ، زوجي الأخير بوزويل .

جيتي : دائماً ؟ من مبتدأ الأمر ؟

ماري استيوارت : لا لم أكن أخشاه في البدء ، ولكنه كان حاد الأخلاق فيه شِرّة وعرام حينما كنت أركب رأسي وأتبع هواي . . . وفي ذات يوم صك ذراعي بعصا شهرها وصال بها كأنها حجة .

جيتي : حجة مدهشة !

ماري استيوارت : حقيقة ! وهي تؤذي إيذاء بالغاً . . . لقد كنت أخشاه على الدوام بعدها .

جيتي : إنه الخوف الذي ولدته التجربة ، فلقد ذقت الألم الجسدي ، وأنت لا تزالين خائفة لأنك حينما جئت هنا كانت روحك قد عانت بتراً فظيعاً .

ماري استيوارت : آه يا عزيزي ! ماذا كان هذا ؟

جيتي : نعم يا بنيتي العزيزة ، إنه بتر فظيع ، فلقد تركت الدنيا مكرهة راغمة .

ماري استيوارت : على منصة الإعدام . . . وأنا أصلي لله .

جيتي : رافعة صوتك باللاتينية ليعلو على إنجليزية القس . . .

ماري استيوارت : الخارجي الضال .

جيتي : لا خوارج هنا يا بنيتي .

ماري استيوارت : يجب أن أقول لا ! . . . آه سامحني ، فإن عقلي يذكر دروسك ولـكن قلبي ينسى .

جيتي : هذه هي النتيجة الطبيعية لـما أصابك من بتر ، فلا شيء ينال من الروح ويمنها مثل هذه الشدة الفظيعة المنكرة التي تعترض قانونها الطبيعي ، ولقد بودرت وأنت في ميعة العمر وغضارة الشباب ، ولأجل هـذا تركت مستغرقة في النوم حتى جئت ، وقد كان واجبي أن أصل بك إلى النضج .

ماري استيوارت : لقد كنت جم العطف ! ولـماذا وقع عليك الاختيار ؟

جيتي : لست أدري لماذا ، ولـكني تخيلت تفسيراً لذلك ، فأنت كنت مخلوقة قوية العواطف لم يطل مقامك بالدنيا ، وأنا كذلك كنت رجلاً كثير الخوالج قويها ، ولـكني عشت فترة كافية لأخذها بشيء من النظام ، ولذا قد تفيدين مني بعض الفائدة.

ماري استيوارت : ومع ذلك فإن السن على ما يظهر لم يكن لها أثر يذكر ، فأنت نفسك قد أخبرتني أنك قد استهدفت لعاطفة حب قوية قبيل خلاصك بسنوات قلائل .

جيتي : الحب عند الشعراء ضرب من الوحي ، وكان حبي ينتقل إلى أشعاري فأسترد حريتي .

ماري استيوارت : (وهي سابحة في الخيال) كان الحب

يستعبدنى ، وأى غضاضة يجدها فى التوسل والتماس الشفاعة من ولد ليأمر وينهى !

جيتى : إن التوسل إذا كان ناجحاً فهو نوع من الأمر .

مارى استيوارت : نوع من . . . أنت تعرف أن النوع من الشيء ليس الشيء .

جيتى : ولكن النتائج قد تكون واحدة .

مارى استيوارت : الخارجية لا الداخلية ، وإنى أشعر — وأنا واثقة من أنى لا أعرف — أقول إنى أشعر بأن الروح التى تتضرع وتبتهل تتضاءل وتصغر ، فى حين أن الروح التى تأمر وتسيطر تتسع وتكبر ، أليس الأمر كذلك ؟

جيتى : ليس من الضرورى أن يكون كذلك .

(لحظة هدوء وصمت)

مارى استيوارت : لا بأس ؟ ماذا فى الأمر ؟ لقد التزمت الصمت ولذت به ، ويبدو عليك أنك لم تعرف الجواب الصحيح .

جيتى : ربما لا أعرفه .

مارى استيوارت : آه ، أستميحك العذر يا أستاذى وصديقى ، إنى لم أزل قلقة مستطارة ، وأنت تعلم ما كانت تقوله رعيتى من الفرنسيين « حينما يكون الإنسان سخيفاً يتطاول عهده بالسخف » ولم يخطر على بالى أن يظل القلق باقياً حتى بعد الخلاص .

جيتى : ولكن يا بنيتى العزيزة لم أكن مستغرقاً فى التأملات ، وغاية ما فى الأمر أنى كنت أفضى إليك بعدم تأكدى من معرفة الجواب ، فلست واثقاً من ذلك .

ماری استيوارت — نبئنى عن هذا : حينما نبعث ثانية ونمثل هنا ففى أى مرحلة من مراحل حياتنا نتبدى ؟ أقصد أية سن نختار وأية لحظة ؟

جيتى : إن الجواب عن ذلك يتضح لنا من حقيقة ملموحة ، وهى أنه لا يأتى هنا إلا الذين حققوا إنسانيتهم فى لحظة من اللحظات مهما كانت من القصر والسرعة وعاشوا فى ألفة ووئام مع روح الكائنات كلها ، وهم فى تلك اللحظة يلمسون الأبدية ، ويصبحون من الخالدين .

ماری استيوارت : والذين لا يصلون إلى ذلك ؟

جيتى : لا يبعثون ، فهم يموتون موتاً أبدياً .

ماری استيوارت : كذلك أنا ... ومتى بلغت ذلك ..... ؟

جيتى : أنت الأعلم ، ففى بعض الأوقات تظل الروح راقدة حتى تثمر حياتها ثمرتها ، وأمثال هذه الأرواح لا تظفر بالخلود إلا بعد الخلاص من أوهاقها الأرضية ، وفى الغالب بعد انقضاء زمن طويل ، والزميل الجديد الذى نستقبله اليوم مات منذ سنوات كثيرة ، ولكن بذوره أثمرت فى روسيا سنة ١٩١٧ ، واسمه كارل ماركس .

ماري استيوارت : ولماذا ظل ينتظر عشرين سنة أخرى ؟

جيتي : كان مضطراً إلى الانتظار ، وليس ذلك بالزمن الطويل ليتطهر من أرجاسه الأرضية .

ماري استيوارت : أوه ! و . . . من غيره طلبتم لقاءه ؟

جيتي : المسيو ڤولتير .

ماري استيوارت : هاهو .

(ويبـدو فجأة ڤولتير باسم الثغر كما كان فى سنواته الأخيرة الظافرة قادماً من « لا أين » ، ولا يثير حضوره أى دهشـة للاثنين الآخرين النازلين فى الفردوس) .

جيتي : ونابليون

ماري استيوارت : العظيم ؟

ڤولتير : سيدتى ، ليس هو عظيماً ، فجرمه كالجندى العادى... وليس بالطويل الفارع

ماري استيوارت : يامسيو ڤولتير ، عظمة الروح . . .

ڤولتير : ياسـيدتى ، لقد كان يجب أن يعرف بأنه الضابط الصغير ، وهو تملق مناسب لرتبته وصفـه ، فهو ضئيل الجسم صغير الروح .

ماري استيوارت : أنت مخطئ يا سـيدى ، فالروح تـكون كبيرة حينما تـكون أغراضها كبيرة .

ڤولتير : إنى أعرف أن المسيو جيتى أستاذك كان على الدوام متشيعاً لمعاصره العظيم .

جيتى : ولكن ألم تنعته بالعظيم أنت نفسك فى التو واللحظة ؟

ڤولتير : أعتقد أنه كان عظيماً لأنه أسرف فى تقتيل معاصريه .

مارى استيوارت (فى لهجتها الحالمة) : معاصر ! . . . ثانية ! . . . أى كلمة !

وما أكثر مطابقتها لما أشعر به ! إنى غريبة بينكم ، وإنى واثقة من أن الذين عاشوا على الأرض فى عصر واحد يكونون كأفراد أسرة واحدة .

ڤولتير : هل تشعرين يا سيدتى بأن الملكة اليصابات أقرب إليك منا ؟

مارى استيوارت : اليصابات المسكينة ! . . . أود أن أعرف هل ظفرت بلحظتها الحالمة . . . ومتى ؟ ما فى ذلك بأس ، نعم . إنى أشعر بأنها أقرب إلىّ منكم ، فلقد عشنا بين الأشياء نفسها ، ولقد أحببنا وكرهنا الأشياء نفسها والناس أنفسهم ، وماذا يهم أنها كرهت حيث أحببت ؟

جيتى : لا تزالين تهتزين وتنتفضين بقوة أرضية ، ولكنك ستتخلصين من ذلك ، تأملى الصفاء والهدوء الذى يشع من هذا الرجل القادم علينا الذى جعل أوروبا يوماً تهتز وترتجف على باب حياة جديدة .

نابليون (إلى جيتى) : يا سيدى ، لقد قطعت دعوتك على تفكيرى فى حالة أوروبا الراهنة .

جيتى : إنه استعداد لائق لأن رفيقنا الجديد أحد الروحين اللذين يحركان أوروبا .

ڤولتير (موجهاً التفاته إلى نابليون) : وأنت يا سيدى الروح الآخر .

المنظر الثانى

يُسمع فى هواء روضات الفردوس النقى اللحن
المقدس الذى يمثل به جلالك فى أورفياس التى
أبدعها وصول روح جديدة ، وتدخل روح
كارل ماركس وقد أشمت منه الدهشة والشك
فى حقيقة ما يراه .

كارل ماركس : أحلم أم حقيقة ؟ جيتى ؟ نابليون ؟ ڤولتير ؟

جيتى : وجلالتها ، مارى استيوارت ، ملكة اسكتلندا وفرنسا .

كارل ماركس : أوه ، ياسيدتى ! آمل أن جلالتك تسامحينى... فإن بحثى التاريخى لم . . .

مارى استيوارت : أرجوك ألا تذكر ذلك ، ويسرنى أن أقابل أحد أساتذة أوروبا . . .

كارل ماركس : جلالتك كريمة إلى حد بعيد ، إن أوروبا لم يكن فى وسعها غير ذلك ، ولم أصف سوى الأشياء التى كان وقوعها محتوماً .

ڤولتير : إسمح لى أن أشك فى ذلك ، وعلمك قد نسى ، ولم يكن حظه من العلم كبيراً ، وأنت مدين بانتصارك لأخطائك ، فقد تكهنت بأن الاشتراكية ستكون نتيجة لتركيز رأس المال

فى الأمم التي بلغت الصناعة فيها أوجها ، والذى وقع هو أنها كانت نتيجة لنقص رأس المال بين الروسيين المتأخرين ، وأنت حسبتها نتيجة للصناعة ، وقد جاءت نتيجة للحرب ، وقد قصدت أن تكون انتصاراً للعقل ، وقد جاءت بمثابة العقيدة الجديدة .

كارل ماركس : عقيدة ؟ لماذا ، لقد جعلنا الروس يعولون على العقل وهم أقل الأوروبيين اعتماداً عليه !

ڤولتير : حولتهم إلى عقليين ! إن الروسى لا يحب العمل ، وهو ولوع بالمعجزات ، وقد أخبره تلامذتك أن الآلة ستعمل من أجله ، وهى أخلق المعجزات بالإعجاب ! فهو يبنى المعامل والمصانع الكهربائية كما بنى أجداده الكنائس ليكفيه البابا مئونة العمل

كارل ماركس : أنت تسخر وتهزأ لأن لينين قد قام بما أعجزك القيام به ، فهو قد حرر الشعب من أفيون الدين .

ڤولتير : لينين نفسه يعبد جسده ، إنها عقيدة يا سيدى وإلا لما نظموا الاضطهاد الدينى ، إن رئيس أساقفة إنجلترا مسكيناً لا يستطيع فهم ذلك ، ولأول مرة (لاحظ ذلك فى ألم وتعجب) — لأول مرة يقع الاضطهاد الدينى بغير اسم الله .

كارل ماركس : كيف نضطهد أى إنسان باسم الله ونحن لا نؤمن به ؟

ڤولتير : وكيف تستطيع الناس أن تضطهد الناس إن لم يكن هذا الاضطهاد باسم الله ؟

كارل ماركس : إن الله فرض فلسفى .

ڤولتير : وكتاب رأس المال إنجيل ، إنجيل القديس ماركس

ماري استيوارت (وهى تقرع جبهتها بيدها) : لقد عثرت عليها !

جيتى : ماذا ؟ وما الخبر ؟

ماري استيوارت : منذ دخول المسيو ماركس وأنا أعجب وأسائل نفسى عمن ذكرنى ، وقد اهتديت — ذكرنى بالدكتور نُكْس ، فنفس الغيرة والحماسة ، ونفس الوثوق بالنفس ونفس الجزم والتأكيد (توجه التفاتها إلى الدكتور ماركس) يا سيدى هل تؤمن بالقضاء والقدر ؟

كارل ماركس : حسن ، يا سيدتى — أقصد جلالتك — إن بحثى التاريخى لم يكن . . . أقصد أنه ليس موضوعاً لروح العصر كما نقول فى ألمانيا .

ڤولتير : ترى أنه ليس كذلك ؟ ألا تعتقد أن النوع الإنسانى مسوق إلى الشيوعية بدافع من قوانين علم الاقتصاد الثابتة ؟

كارل ماركس : ولكن ، إذا لم أكن مخطئاً ، فإن جلالتها تقصد المسائل الدينية التى لا أعلم عنها شيئاً .

جيتى : هذه الحقيقة يعرفها ڤولتير معرفة تامة ، وهو كان يمزح بفكاهته البارعة ونكاته المستملحة .

ڤولتير — إنه شىء أكثر قليلاً من المزاح يا سيدى ، لأن

السيدة قد أصابت الحز عندما تذكرت الدكتور نُكْس حين رأت الدكتور ماركس ، ويلزم أن يسامحنى الدكتور إذا أبديت رأيى ، فهو مثل الدكتور نُكْس عاجز عن الوصول إلى الحق ، والله ينقذنا من هؤلاء الناس الذين بلغ بهم فرط الثقة بآرائهم إلى حد أنهم لا يتورعون عن قتل الغير من أجلها ، (يوجه الحديث إلى الدكتور ماركس) أنت تعتقد فى نفسك أنك من رجال العلم ، ولكنك متحمس دينى تأخر مولده ثلاثة قرون ، ولقد قصدت أن تنشئ حكومة تقوم على سلطان العقل وتضم أمماً مختلفة ولكنك أنشأت عقيدة ، واقتضى ذلك بطبيعة الحال حرباً دينية ، أجل الطرف فى أوروبا تبصرها قد عادت إلى القرن السادس عشر ، فما الذى كنا نجاهد من أجله جميعاً فى القرن الثامن عشر ؟ كان الكاثوليكى والبروتستانتى يقتل كل منهما الآخر لاختلافهما على اختيار أحسن الأساليب لعبادة إله الرحمة ، وفى العصر الحاضر يتلهف كل من الشيوعى والفاشى على قتل الآخر نزاعاً على اختيار أحسن الطريق المفضية إلى السعادة ، وفى الحالتين كلتيهما يسحق فريقا المتعصبين المتحمسين ملايين الناس الذين لا يعبأون فتيلاً بهذه العقائد ولا يطلبون سوى أن يتركوا منفردين ليعبدوا كما يشاءون وليكونوا سعداء على الطريقة التى يرونها أحسن الطرق .

ماري استيوارت : أنا معك فى هذا ، وقد أدركت الآن لماذا ذكرنى الدكتور ماركس بالدكتور نُكْس ، ولا يستطيع أحد

أن يكون ألد منه عداوة فى سبيل حب الله .

كارل ماركس : أنا لا أكره إنساناً من حيث هو شخص ، أنا أكره الرأسماليين لأنهم يقفون فى طريق سعادة الناس ، وليست هناك حرب دينية فى أوروبا ، ولا يوجد سوى تأثير القوى الاقتصادية ، والفاشية ليست سوى أنفاس الرأسمالية الأخيرة وهى تشمر بيد الصعاليك الحديدية عند حلقها .

ڤولتير : تقرير علمى هادئ !

نابليون : كلا كما صاحب نظريات خيالية ، إن الأشياء لا تحدث طبقاً لخطة موضوعة ، وذلك حتى فى الحرب وهى أوفر الأعمال البشرية نصيباً من العلم ، فلا أنجيل الدكتور ماركس العقلى ولا مذهبك فى الحرية العقلية يا مسيو ڤولتير يكفيان لتفهم حالة أوروبا فى أيامنا ، لأن أوروبا حياة ، والحياة ليست خاضعة لسنن العقل ، وليست الفاشية رد فعل رأسمالى لمقاومة الماركسية ، وإنما هى رد فعل للامتياز ضد المساواة ، فكل إنسان له قيمة وشأن سيبلغ الذروة ، وكل أمة لها قيمة وشأن ستشق طريقها إلى العظمة وبسط النفوذ واتساع الرقعة .

مارى استيوارت : أوه ، ما أصدق هذا !

نابليون : وهذا هو سبب أن الفاشية فى كلتا ألمانيا وإيطاليا جاهدة فى تحطيم الرأسمالية ، ولا يقول بأن الفاشية هى رأسمالية سواء كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة أو غير ذلك إلا رجل مفتون

بالنظريات غير مبصر للواقع مثل الدكتور ماركس ، وموضع الضعف فى الرأسمالية هو أنها لا تهيئ لنا نظاماً سريعاً يتحرك تحركاً ذاتياً بحيث يكفى لتجديد القادة ، ويلزم أن يكون فى استطاعة أفاضل الرجال أن ينهضوا حثيثاً ، كما أن التخوت والأوشاب يلزم أن يتهافتوا تهافتاً وحياً ، والفاشية تتكفل بهذا .

فولتير : — ولكن يا سيدى هناك طرائق كثيرة لجعل الناس طبقات ، ولقد كان فردريك البروسى ملكاً عظيماً ولكنه كان شاعراً مختشباً ضئيلاً ، وفى هذه الآونة يعيش فى فينا ساحر[1] يدعى أن الطموح الترامى إنما هو نزوع تعويضى سببه الإخفاق فى ميادين أخرى أرق حاشية وأبعث على السرور والاستمتاع .

مارى استيوارت : — أما من هذه الناحية يا سيدى المستنير فقد عرفت رجالاً كثيرين لهم حذق ولكن ينقصهم نفاذ النظر فى كل ناحية أخرى من نواحى الحياة . .

نابليون : (فى جفاء) هناك معيار واحد — وهو الخلق ، والعقل بغير الخلق نكبة على الأمم ، فهو شعلة يحملها طفل ، ويلزم إطفاؤها بأى ثمن حتى لو اقتضى ذلك موت حامل الشعلة .

كارل ماركس : (فى حدة) هذا ما يعمله هتلر تلميذك ، وموسولينى كذلك ، وما تسميه خلقاً أسميه جشعاً ، وما تسميه

(١) إشارة إلى فرويد العالم النفسى الكبير .

ظهوراً وصعود نجم ليس سوى تكديس الأرباح والمكاسب المسروقة من جيوب الموجد الحقيقى للثروة ...

جيتى : من هو ؟

كارل ماركس : العامل .

جيتى : أى عامل ؟

كارل ماركس : جميع العمال ، الفقراء الصعاليك .

ڤولتير : الصعاليك ! أى لفظة ! عاطفة يا سيدى ، مجرد عاطفة ولم يوجد قط شىء كهذا.

كارل ماركس : آه ، أنت تتكلم وأنت وادع مطمئن ، وجميعكم قوم مياسير مصقولو الحواشى طاعمون كاسون ، قد مكنتكم من التعليم الثروة التى جمعتها طبقتكم فى خلال سير التاريخ من بحار البؤس المتلاطمة الزاخرة ومن قرون الحرمان والفاقة ، وكلكم سادة نجب وسيدات حسان ، ولكن النوع الإنسانى يجب استنقاذه من هذا الحضيض الأوهد الذى تودون أن يترك فيه حتى تذوى نضارته ويصبح كأوراق الشجر الميتة فى متنزهاتكم ما دمتم مستمتعين بالوقود لتدفئة أجسامكم حتى تصير رشيقة وعقولكم لتزداد حدة وذكاء ، لا لست أبالى أكان ذلك علماً أم عاطفة ، إنه نوع من الحساب على أى حال ، وقد دنا يوم الحساب وقد أرهص به القدر .

جيتى : لا يستطيع أحد أن يعلم ما غيبه القدر ، ونحن أجهل

بالكيفية التى تسوى بها فى النهاية الحسابات والتقديرات التاريخية ولذا — إذا سمحت لى يا دكتور ماركس — سأحاول أن أدخل شيئاً من النظام على مناقشتنا ، وأذكر لك قبل كل شىء أننا جميعاً نقصد الخير للطبقات كلها ؛ وقد نختلف فى الوسائل على حين نتفق فى الغايات ، ولنبعد عن عقولنا خطأً أراه متفشياً بالأرض فى هذا العصر ، وهو — إذا لم أكن مخطئاً — يفسد عليك تفكيرك ، فكثيرون من الناس ينزع بهم التفكير إلى أن يروا أو يفترضوا أن أفكارنا إنما هى المحامى العقلى الذى يسوغ رغباتنا وامتيازاتنا الاجتماعية وكل ما نؤثره ونفضله .

كارل ماركس : إننا نفكر حسب طبقتنا ، والاقتصاديات تسبق التفكير ، وأنت تأتى إلى الدنيا فى وضع اقتصادى يشكل حياتك ومحصر تربيتك ويحتم ويحد تجاربك وحيز مشاهداتك ولذا يوجه تفكيرك .

جيتى : إعلم يا سيدى أن هذه النظرية شديدة الخطر عليك وعلى مدرستك ، لأنه من الواضح لكل عقل موضوعى أن جميع عوامل البيئة التى وصفتها ببراعة واقتدار هى عناصر أو مقومات لتفكير الإنسان ، ولكن تفكير الإنسان فى النهاية حر بنسبة حيويته الروحية ، ومن الواضح كذلك أن حيوية الفكر الكامنة ضعيفة فى الطبقات التى تقوم بالأعمال اليدوية ، وعلاوة على ذلك فإن ضغط البيئة يعمل فى هذه الطبقات بقوة أشد لأنه يجد من

التجارب ويأخذ عليها المسالك إلى حد لا نظير له فى حياة الميسورين الراغدين ، ويتبع ذلك أن رأى الطبقات العاملة باليد أقل موضوعية وانطلاقا من القيود من رأى طبقة أخرى فى المجتمع ، وليس هذا مما يقوى الإيمان بالديمقراطية وهى حليفتك التى لا غناء عنها .

مارى استيوارت : أيمكن أن أضيف أننى أشعر بأننى متأكدة — ولو أننى لا أعرف شيئاً عن الدكتور نُكْس — قصد الدكتور ماركس — أقول بإننى متأكدة من أن آراءه لا يمكن أن تفسر بأنها من إملاء مصالحه لأنه من المؤكد أن رجلاً له مثل هذه البراعة لا بد أنه كان يجد فى حياته سادة يدفعون له خيراً من هؤلاء الـ . . . . ماذا يسميهم — تلك الكلمة الطويلة ؟... الصعاليك .

ڤولتير : لقد عرف العالم الكثيرين من شهداء العلم . . .

مارى استيوارت : والدين ؟

ڤولتير : نعم ، والدين ، والتفكير يحلق فوق الأحوال المادية ، وإذا اقتضى الأمر يناقضها ، وكم من الشبان أبناء الأغنياء الميسورين يحاربون الآن فى صفوف الشيوعيين ؟ فهل نستخلص من ذلك أن الشيوعية ثمرة الثروة والترف ؟ وإذا كانت آراؤك ليست سوى الجوع الذى انتقل من معدتك إلى ذهنك فكيف يصل بك سوء الأدب إلى حد أن تنتظر منا الإصغاء لمدمدمتك الداخلية ؟

جيتى : مهما يكن الأمر لنحتفظ من نقد الدكتـور ماركس بحقيقة أن الناس كلهم يلزم أن يبذلوا مجهوداً ويقوموا بمحاولة للارتفاع فوق حدود طبقاتهم ، ولـكن حينما أقول الـكل فأنا أقصد الـكل ومن بينهم العمال .

كارل ماركس : العمال لا يحاولون أن يرتفعوا فوق حدود طبقتهم لأنهم يحاولون إزالة الطبقات جميعاً .

نابليون : يمكن قياساً على ذلك أن نحاول إزالة المناخ .

كارل ماركس : الطبقة حقيقة مصطنعة ، وقد تظهر وتختفى وعبيد اليونان والرومان كانوا طبقة ، وقد ذهبوا وولى عهدهم .

ڤولتير ـ وأنت ، أنت نفسك ولينين واستالين طبقة ، وليست بحال من الأحوال مثل جماعة العمال الذين تقودونهم وتسيطرون عليهم ، ولم تكن العبودية طبقة ، وإنما كانت مجرد صـورة من صور طبقة الخدم المأجورين ، وقد ذهبت الصورة ولـكن الطبقة لا تزال باقية ، ويأتى التعب من العاطفة والشعور ؛ وأنت تقول « الطبقة » ولـكنك تفكر فى شخص معين اسمه مندلسن صاحب مصرف وشخص خاص اسمه ميير أستاذ أو كاتب وشخص خاص اسمه شيلت يعمل سمكرياً أو نجاراً ، ولا تستطيع أن ترتفع فوق حقيقة أن مندلسن ثرى وأن ميير فى عيشة راغدة وأن شيلت فقير ولا ترى ن الطبقات إنما هى صور يمر بها الناس ، وفى أيامنا الأرضية — والحال أخف وطأة فى أيامك — كانت الطبقات

قد جمدت واستحالت طوائف بسبب الامتيازات والحقوق المتوارثة ولكن الناس فى الوقت الحاضر ينتقلون من طبقة إلى طبقة بكفاياتهم التى قد تسمو بهم أو بعجزهم الذى قد ينزل بهم .

كارل ماركس : الصعلوك فى الحضيض مهما كانت كفايته .

ڤولتير : كيف تضع رجلاً يملك حانوت دراجات صغيراً فى بلدة صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها خمسة آلاف نسمة ؟

كارل ماركس : نظرياً هو مستأجر ، وعملياً هو شديد القرب من الصعلوك إلى حد أننا نحن الاشتراكيين نحميه باعتباره عاملاً ونحن دائماً نعتقد —

ڤولتير : هذا يكفى يا سيدى ، وقد ارتفع هنرى فورد من مكانة مثل هذا الصعلوك إلى منزلة أحد أعيان الصناعة ، وهو مركز من أعظم وأقوى ما عرفته الدنيا ، وفى خلال تسنمه ذرى هذه المكانة جعل ديترويت المدينة الرابعة فى الولايات المتحدة الأمريكية .

مارى استيوارت : الفزع الرابع .

ڤولتير : قد يكون ذلك ، ولكن هؤلاء السادة المطارفة لا يرون ذلك ، فهم يعجبون بدّروا إعجابهم بفورد الذى أنشأها.

كارل ماركس : لقد ارتفع وسما شأنه لأنه كان خائناً لطبقته ، وكان يدفع للمخترعين الذين يعملون عنده أجراً دون ما يستحقون .

جيتى : هـذا ، على ما يبدو لى ، مسألة أخرى ، لقد كنتم

تتناقشون فى مسألة العال وهل تمنعهم الطبقات الأرقى من الارتفاع أو لا ، ورأيى الخاص أنه ولو أن الأمر كذلك فى حالات كثيرة فإن الخطأ ليس فى النظام ، ولنقل إن هناك ثلاث طبقات ، ففى الطبقة الأدنى سيرتفع الرجال ذوو العقول والعضـل المفتول إلى صفوف أعلى ، والذين يعجزهم الارتفاع من الخير أن يظلوا حيث هم ، وهم هناك أسعد حالاً لأن الإنسان يكون أسعد بين أشباهه وأنداده ، والرجال الذين لا يستطيعون المحافظة على مستواهم فى الطبقات الأسمى لا مناص من سقوطهم طال الزمن أو قصر .

كارل ماركس : لا يستطيع أحدكم أن يجعل هذا النظام عادلاً .

مارى استيوارت : هذا الظلم مرده إلى الطبيعة التى تمنحنا وقت ميلادنا مقدرتنا ومكاننا الاجتماعى .

جيتى : إن خلق الفرد هو دافع الحيـاة ومحركها ، والغنى أو الفقر يجعـل الرجال الأقوياء أقوى ، والرجال الضعفاء تزيدهم الثروة أو الفقر ضعفاً .

نابليون : ولـكن الشىء المهم ليس هو الفرد ، الشىء المهم هو الدولة ، ويلزم أن تشمل الدولة ثلاث طبقات ، القادة وهيئة الضباط والجند .

مارى استيوارت : والنساء .

نابليون : للنساء أهمية اجتماعية قليلة خارج المنزل — إلا إذا

كن من دماء ملكية وكانت لهم روح سامية كما كنت ياسيدتى فى أيامك الدنيوية .

ڤولتير : دور المرأة فى المجتمع يا سيدى أعقد من ذلك ، فهن يتطلعن إلى الرخاء والحضارة والثقافة والصفاء ورقة الشمائل والأدب الجم وكلها أشياء تقدرها جمهرة الرجال تقديراً ضئيلاً ؛ ولولا نساؤنا لكنا حتى الآن من أكلة لحوم البشر الكريهى الرائحة .

مارى استيوارت : مهما يكن من الأمر فإن لهن معرفة نافذة فى مسائل الطبقات .

جيتى : حقيقة ، هن أكثر من الرجال محافظة على الطبقة .

ڤولتير : لا شىء يفوق النساء الإنجليزيات فى ذلك ، فهن يكتشفن الطبقة بأنفهن أو بالأحرى يسجلنها ، فالسيدة من الطبقة الدنية تسجل حضور امرأة من طبقة أدنى بنخير مسموع من خيشومها ، والأنف من الطبقة الراقية ينتفض على الدوام قليلاً حينما يرى أنفاً أقل منه ارتفاعاً ، وهناك أنوف إنجليزية نسائية تستطيع أن تسجل أخفى الفوارق بين الطبقات دون أن تخطىء .

مارى استيوارت : أراهن على أن الدكتور ماركس لم يفته أن يلاحظ أن زوجة سكرتير الاتحاد التجارى تعرف أنها أرقى طبقة من سائر زوجات أعضاء الاتحاد وتمنى باحترامهن لها .

جيتى : هذا كان يرينا أن النساء يحملن إلى حياتنا هبة

اللاعقلية التى لا تقدر، فهن يعتبرن مجرد المنطق ضيق أفق مقصوراً على الرجال ومضحكاً إلى حد ما ، ومن ثم فإن مواهبهن الخاصة تصبح ثمينة ونافعة بوجه خاص فى هذه الآونة التى أصبح فيها الرجال مهددين بخطر الارتطام فى حياة اجتماعية آلية كخلية النحل، والبيئة الآلية التى عاش بها العمال اليدويون أكثر من قرن قد شكلت بلا وعى مثلهم العليا فصاروا جميعهم يحلمون بمجتمع آلى تكون فيه الأجزاء كلها مصنوعة من معدن واحد ، ولكن المجتمع ليس آلة ، وإنما هو يشبه جسماً حياً ، الحياة فيه واحدة ولكن الأنسجة والخلايا مختلفتان ، ولا نستطيع أن نتصور دولة بغير طبقات كما لا نستطيع أن نتصور جسماً ليس له نسيج سوى العضل .

كارل ماركس : حتى فى الجسم يجب أن تزيل السمنة والنمو الفضولى السرطانى — أى تلك الخلايا التى تستهلك بدون إنتاج ، وهذا لا يترك لك غير العمال .

جيتى : لا بأس ، فى هذه المرة يجب أن نبحث هذا ، وفى آخر مرة أثرت فيها هذا الموضوع لم يستطع المسيو فولتير أن يحتمل كلمتك « الصماليك » — وأصارحك بأنها كلمة بغيضة — وقد استفزك ذلك إلى إلقاء خطبة حماسية ، ولكن الواقع ، يا دكتور ماركس ، أنك الآن ، وأنت تشرف من هذه الأعالى ، قد أدركت أن فكرة مجىء الثروة جميعها من العمل فكرة سخيفة ، أليس كذلك ؟

كارل ماركس : ليست كذلك حتى تقيم الحجة .

جيتى : لقد عدت فاستورطت فى موقف غير مأمون ، واسترعى التفاتك إلى أن العمل — أى بذل الجهد الواقعى — قد أخذت تتناقص أهميته فى خلق الثروة ، فرجل واحد فى وسط معمل من معامل توليد الكهرباء يضغط على أحد الأزرار ويدير رافعة من الحين إلى الحين ويراقب لوحة بها علامات ويصغى لأحاديث التليفون ، وأقول إن مثل هذا الرجل يسيطر اليوم على قوة طاقتها فى الساعة الواحدة أكثر من طاقة جميع العبيد الذين بنوا الأهرامات ، فإذا أقمت حق العامل فى الحياة على عمله لا على إنسانيته قضيت عليه بالهلاك .

كارل ماركس : ولكن لابد من بناء الآلة وإقامة السد .

جيتى : ولكن العمل لم يكن العنصر الرئيسى فى تشييد السد أو بناء الآلة ، ولو أن نفس المقدار من العمل الذى بذل فى بنائهما أنفق جزافاً من غير حساب لما كان هناك آلة ولا سد ، ولحسن الحظ أن هذا العمل استنفد استنفاداً عضوياً واستطاع عقل موجه مشرف أن يجعله جزءاً مكوناً لصورة أسمى من الحياة ، والذى يخلق الثروة هو تعاون عدة عناصر ؛ ولكن العنصر الرئيسى هو عقل الإنسان .

كارل ماركس : واضع تصميم البناء والمهندس والبناء جميعهم كذلك من العمال .

جيتى : ولكن مريديك يسكتون عن هؤلاء ويعلنون جهرة أن الصعلوك هو موجد الثروة .

كارل ماركس : معظم الفنيين يخونون طبقة العمال وينحازون إلى صفوف الرأسماليين .

نابليون : كيف تنتظر أن توافق هيئة الضباط على أن يكون زمام الجيش بيد الجند .

مارى استيوارت : إنى جد مكروبة ، لماذا يريد الدكتور ماركس أن يعمل كل إنسان ؟

ما أفظع ذلك ؟ ولأى شىء الحياة إذن ؟ ولمن هذا العمل ؟ ومن سيلبس ما تصنعه الآلات من المشبكات والمطرزات ؟ ومن سيستمع إلى الموسيقى التى تنبعث من الكمان الذى يصنعه عماله ؟ وهل تزول الفوارق والأساليب والخصائص وأسباب الامتياز والتفوق ؟

جيتى : صوت المرأة هو صوت الله ، لأنه ما الذى نهدف إليه بعد ذلك كله ؟ أتصبح الحياة آلة تعمل من أجل نفسها وتستهلك إنتاجاتها التى تخرجها كأنها مواد خام تستعين بها على إنتاج آخر فى دوراتها التى لا تنتهى ؟ أم نحن نعمل لإمتاع بعض الناس ؟

كارل ماركس : أنتم لا تعملون شيئاً ، ونحن الصعاليك نعمل لإمتاعكم .

ڤولتير : نحن جميعاً نعمل ، حتى حينما لا نفاخر بذلك .

ماري استيوارت : ولكن حتى إذا كنت على حق يادكتور ماركس فيما قلته عن هؤلاء الذين يقومون فى الواقع بالعمل فما معنى هذا العمل بدون وجود أحد لاستهلاكه ؟

كارل ماركس : يستهلكه العمال .

جيتى : إسمح لى ، هذا لا يكفى ، فلو سلمنا بأن ما يعطى لهم يلزم أن يكون أكثر وأجزل مما يعطى لهم فى الوقت الحاضر فإن الكل بحذافيره لا يمكن ولا يجب أن يعطى لهم .

كارل ماركس : إنه فائض القيم المسروق منهم .

جيتى : إسمح لى ، إنتاج الإنسان الصناعى مكون من ثلاثة أجزاء ، العمل المباشر الذى يتضمنه ، وعمل الآلة ، والحضارة التى تقوم عليها التقاليد والثقافة والمعرفة والنظام العام والعدالة والطرق — وبالإيجاز شتى ضروب التعاون الاجتماعى التى لا يخلو منها حتى أدخل مجهودات الإنسان فى الفردية

كارل ماركس : الكل للكل .

جيتى : إسمح لى ثانية ، الكل للجميع ، وليس هذا كذلك ، فأنت تفكر تفكيراً حسابياً ، وأنا أفكر تفكيراً عضوياً ، والجزء الذى تتضمنه الثروة من العمل المباشر يتناقص شيئاً فشيئاً ، والآلة إنما هى الفكر فى حالة تبلور ، وبعد أن يثاب مخترعها يجب أن تضاف أجورها إلى الرصيد الاجتماعى ، وهذا الرصيد الاجتماعى يجب أن يتدبر فى أمره ويوزع حسب الاستحقاق والأهلية .

كارل ماركس : أرى فى سرور وارتياح يا دكتور جيتى أنك اشتراكى .

جيتى : وماذا فى اللفظة ؟ إن الرصيد الاجتماعى يجب أن يوزع حسب المبادئ الإنسانية ومبادئ الثقافة ، ولو اكتفينا بأن ندفع للعامل على قدر عمله لساءت حالته فى هذه الأيام أيام الآلة ؛ ولكن العامل إنسان وأحد أفراد الوطن فهو من ثم مستحق لنصيب من المجموع .

كارل ماركس : هذا شىء جميل ، إنك اشتراكى

جيتى : تمهل وانتظر ؛ وإذا كنا قد وجدنا أن الفائدة والربح قد ساعدا على خلق الثروة فمن اللازم أن يدبر أمرهما ويعنى بهما ؛ وإذا كنا قد رأينا أن التنشئة الحسنة والدعة قد أوجدا قيماً نجل شأنها ونعلى قدرها فمن الواجب أن نحرص عليهما ونعلى لهما .

كارل ماركس : أنا لا أرى ذلك .

جيتى : سأسليك الآن بعض التسلية ، وربما تجعلك الدعة تبصر ما أرمى إليه (ويرفع جيتى يده ، فتسمع نبرات موسيقى هايدن الراقصة المحبوبة وكأنها تعزف فوق رؤوسهم . . . ثم يتراءى أربعة أزواج من الشبان والشابات قادمين من « لا أين » وهم يرقصون رقصاً بديعاً) .

جيتى : تأمل هذا المزيج التام من الصوت واللون والحركة

وانظر هؤلاء الكواعب الحسان الأربع ؛ أربع زهرات من أزاهير الحياة ، لهن شعر جميل طبيعي وهن مع ذلك يبدينه أبيض اللون ، إسراف ؟ ولكن احكم عليه بنتائجه ، هل يستطعن أن يكن أفتن وأخلب ؟ أنظر كيف يجلو الشعر الأبيض الناصع كالثلج نضارة وجوههن وتوقد عيونهن ؛ وهكذا فن الإنسان ، إنه يفوق الطبيعة وينتصر عليها فى ميدانها ؛ وكم قرن من قرون الرخاء والثقافة قد قضيت فى هندمة هذه الثياب الأربعة وجعلها توائم الأجسام التى فصلت على قدودها لتظهر محاسنها ؛ وانظر هذه الأجياد وكأنها سيقان الزهر لورود الوجوه ... وهذه الأعطاف وكأنها أنغام وألحان وتلك المعاصم وهى طاقة من الزهر ؛ والآن انظر الرجال ، فهم كذلك يلبسون الشعر الأبيض وستراتهم — وكانت فى الأصل خاصة بركوب الخيل — من أعاجيب الرشاقة وآيات الإبداع ، وهم يحملون السيوف يا دكتور ماركس ؛ السيوف أدوات الحرب والموت ، فلماذا حملت إلى هنا هذه السيوف ؟ آلات موسيقية وألحان إيقاع ، ولاحظ سيقانهم الموسيقى الحية ؛ وانظرهم الآن جميعاً كيف يتلاقون ويفترقون ويجتمعون وينفصلون فى طاعة فرحة لعبقرية الأستاذ الخفى الذى يشرف على العازفين على الكمان ومن خلال ذلك يحرك عواطف الراقصين الثمانية وسيقانهم فى تجاوب ووفاق مقدس ؛ وحينما يهدأ اللحن وينتهى أمده فى ابتهاج وفرح أنظر كيف ينحنى الرجال ،

وهم الأقوياء الأشداء ، قبالة الزهرات الجميلة الأربع — وهو رمز إلى أن انتصار الحياة ليس لقوى الذكورة وأهدافها وإنما للرقة والرشاقة النسائية والجمال النزيه .

(ويرفع جيتى يده ثانية فيختفى الراقصون) .

ڤولتير : لا فائدة ، لقد رأيت الدكتور ماركس قلقاً فى أول الأمر ، وعند تكراره أخذ يتثاءب ، لا فائدة .

كارل ماركس : الحقيقة أننى لم أفهم فهماً تاماً لم هذا المنظر الباهر .

مارى استيوارت : لم ! لم ! ولكنه ليس فى حاجة إلى لم ! إنه يبرر نفسه ، إنى لم أر ما يماثله جمالاً ، لابد أنه كان زمناً أنيقاً محبوباً ؟

كارل ماركس : شديد الوطأة على الطبقات الفقيرة ياسيدتى ، فالتهذيب والأناقة للعلية ، والطبقة السفلى تلقى العنت وتتقلب فى القذارة .

جيتى : ليس هذا بيت القصيد ، نحن بأجمعنا متفقون على أن إزالة العوز أمر لابد منه ، ولكن كيف ؟ وهل يجب فى أثناء قيامنا بهذه المحاولة أن يغيب عن بصرنا رؤية غرض المجتمع ؟ فالثقافة إنما تأتى من الفراغ والدعة والتهذيب والصقل .

كارل ماركس : لقد تبينت فحوى حديثك ، وهنا إذن

ما قصدت إليه ! ولكنى أرجوك أن تلاحظ أن أحسن رقص تمثيلى فى الاتحاد السوفيتى .

جيتى : ولكن فكرة الرقص التمثيلى فى جملتها فكرة أرستقراطية ، والمجتمع وهو من أهم العوامل فى إنتاج الثروات يلزم أن ينفق من الثروة ما يكفى للإبقاء على التهذيب والأناقة والذوق المصقول ؛ وفضلاً عن ذلك فإننا حتى إذا نظرنا إلى الأمر من جانب حجة الإنتاج وجدنا أن غير المنتظر والذى لا يجرى على سنن المنطق لا يزال هو أخصب حالات الطبيعة ، وبينما يخلق عمالكم اليدويون الثروة من المبالغ الضئيلة إذا بنزوة من نزوات التوهم أو وثبة من وثبات الخيال أو لقية من لقى الحظ أو لمسة من لمسات العبقرية تضاعف المبالغ الضئيلة وتجعلها ملايين .

نابليون : وبرغم ذلك فإن النظام لابد منه ، والعالم آخذ فى التناقص والتضاؤل ، ولكنه أكثر اكتظاظاً ، وما كان ممكناً فى العصر الذى لم يكن به سوى عدد قليل من الناس لا يتحركون سوى حركات قليلة أصبح غير ميسور فى الأيام التى نشطت فيها الجماعات نشاط النحل فى الخلايا ، وهتلر وموسولينى كان عندهما الشجاعة التى يبدو لى يا مسيو جيتى أنها تنقصك ، وهى القدرة على السير بعقيدتهما فى السيادة إلى نتائجها المنطقية ، فخير الناس يجب أن يرفعوا لا ليتأملوا أفكارهم ويستمتعوا بها وإنما يجب أن يرفعوا ليحكموا ، ويجب أن يحملوا التبعة التى لا يستطيع

الاضطلاع بها الرجل العادى فى هـذا العصر ، عصر الصناعة الفنية النامية والتراكب والتعقيد ؛ والحكم معناه السيطرة والإشراف ، والقائد يعرف الطريق ولا يستطيع أن يتناقش فيه مع الذين يتبعونه ، وإلا فهو ليس بقائد .

جيتى : أعرف رجلاً يستطيع أن يجيبك ويرد عليك وله من الخبرة والدراية بهذا الموضوع أكثر مما أملك يا سيدى ، والجنرال واشنجتن ، كما تفضل أن تدعوه ، أو الرئيس واشنجتن كما أفضل أن أقول أنا ، قد تتبع مناقشتنا من مكان إقامته ؛ وأتمنى أن يكون حاضراً ، وأملى أن يوافق على ذلك .

المنظر الثالث

يظهر فجأة الجنرال واشنجتن بطلعته المهيبة ومحياه الوقور بين الجماعة وكأنه كان هناك من أول الأمر، وهو لا يشبه صورة من صوره الشائعة لأنه أكثر إنسانية منها كلها ، وهو يطرف بعينه من الحين إلى الحين .

واشنجتن : من المؤكد أنني كنت سأحضر وأتحدث إليكم حتى لو لم أستدع يادكتور جيتى ، ولقد تتبعت مناقشتكم باهتمام أخاذ وكدت أن أتدخل فى مرحلتها السابقة حينما أثار الدكتور ماركس مسألة العبيد (يلتفت إلى الدكتور ماركس) لماذا تتصور وجود جماعة نظامها من الإحكام والشدة والصلابة بحيث لا يعتريه تغيير كما لو كان مثلثاً ؟ هناك جماعات معينة ولكن لا يوجد مجرد جماعة ، والزمان والمكان يغيرانها تغييراً عظيماً ، وأقدم لك مثلاً لذلك الولايات المتحدة ، فقد تغيرت تغيراً كبيراً بحيث أنني لو عدت إلى فرجينيا اليوم لما ترقيت إلى أكثر من قائد فرقة .

فولتير : لقد كان التواضع دائماً الثوب الفاض على كبريائك المحبوبة .

واشنجتن : هذه براعة تفوت إدراكي يا مسيو فولتير ، وقد

كنت أعجز عن فهم نصف نكات صديقى لافاييت ، وهو مع ذلك لم يكن نداً لك فى براعة النكتة وقوة البادرة ، ولكن لأعد إلى الموضوع ، لقد ولدنا فى جماعة تملك العبيد ، ولو لم تملك الولايات المتحدة العبيد مدة نصف قرن وأكثر مما يرجع إلى أيام استعمارها لما كانت اليوم أرض الأحرار ، وقد لا تحب أنت ذلك ، وهى كذلك لا تحبه ، وأنا كذلك أمقته ، ولكنه هناك ، وهكذا الحياة ، والله الذى أراد أن تتغذى غلالنا وأزهارنا من السماد قضى بأن تكون كبرياؤنا متغلغلة الجذور فى عدم المساواة .

كارل ماركس : إذا أدخلت الرب فى الموضوع أصبح البحث العلمى غير ميسور .

ڤولتير : هذا لا يجب أن يضايقك بحال ، فقد أثبتنا لك أن علمك ليس سوى عباءة محلاة تستر بها عقيدتك ، وأنت نبى يهودى آخر — آخر السلسلة التى منها آموس وهوسيا وهبا كوك — هؤلاء الذين يشبهون الذيل المصنوع من الورق لطيارة الكتاب المقدس .

واشنجتن : ليس هذا من خير ما عندك يا مسيو ڤولتير ، ونحن فى أمريكا نحترم الكتاب المقدس احتراماً شديداً .

ڤولتير : أنا نفسى من الثائرين على قراءته ، ولكنى مع ذلك لست من جماعة المتمسكين بحرفية الكتاب المقدس !

واشنجتن : أخشى أننى أجهل معنى هذا ، فهل هم أصحاب مذهب ؟

ڤولتير : لا يا سيدى ، إنه اسم يطلق فى بلادك على الذين يعتقدون بحرفية كل ما ورد فى الكتب المقدسة ، وقد جاء أحد زعمائهم إلى هذه الأنحاء منذ عهد قريب ، وأنت بلا شك سمعت عنه ، وكان اسمه هنالك وليام ينجز بريان ، فإذا لم تر بأساً أتحت لك الفرصة لتضيف إلى حججك بأن أخبرك بقصة لقائه الرب .

كارل ماركس : ولكن ..... الرب .

ڤولتير : نعم ، الرب ، فرضك الفلسفى ، وهناك أشخاص على ما يظهر يحظون بالمثول بين يديه حين يحضرون إلى هنا ، وحدث أنى عرفت أن المدعو وليام ينجز بريان كان من هؤلاء ، وقد انتهت إلىّ القصة من مصدر جدير بالاعتماد عليه ، وأنت تعلم أن وليم ينجز بريان كان مستشاراً فى قضية ديتون المشهورة ضد معلم المدرسة الذى ألقى دروساً عن الداروينية فى المدرسة ، وقد حكم عليه بريان لتسميمه عقول الأطفال بنظرية النشوء والارتقاء ، وما لبث أن مات فى عقب ذلك .

فلما قدم إلى هنا أخذ إلى حضرته ، وكان وليام ينجز بريان قد أشرق محياه وفاض قلبه سروراً وابتهاجاً ، ولم يبد الرب ارتياحاً ولا تحمساً ، ولم يلحظ بريان نقص الحماسة الشائعة فى الجو لأنه كان يحمل فى نفسه من الحماسة ما يكفى لميلأ جواء عديدة فقال

« يارب إننى ههنا » ، ولا يزال غبـار المعركة عالقاً بى ولـكن النصر لنا »

فأجاب الرب فى صبر مقدس « لست كثير الميل إلى هـذه اللغة ، المعركة ، الحرب ، الانتصار » فدافع وليام ينفجز بريان عن وجهة نظره قائلاً « ولـكن يارب ! أنت رب الجموع الحاشدة والعدد العديد ، وهـذا هو الاسم الضخم الذى يطلق عليك فى التوراة » فاعتذر الرب عن نفسه قائلاً « لقد كنت حينذاك فى غرارة الصبا ، ولم أكن مجرباً لما أوحيت إلى أنبياء بنى إسرائيل القدامى أن يكتبوا كتبهم الحربية النزعة ، وأنت تنسى أننى منذ عشرين قرناً مضت أرسلت إليكم رسولاً للحب والسلام »

فخار وليام ينفجز فى أمره ودافع عن نفسه ، وقد أزعج بعض الإزعاج ، قائلاً « أوه يا رب لقد حاربت أعداءك » فرده إلى صوابه الرب الذى يلتزم الصـبر دائماً بقوله « ليس لى أعداء ، ليس لى سوى مخلوقات » فأسقط فى يد البائس المتمسك بحرفية الـكتب المقدسة فقال أخيراً وقد أخذ الشك يوجع قلبه « ولـكن يا رب نظريات دارون مناقضة لـكتبك المقدسة » فأكد الرب بهدوء ولـكن فى عزم وإصرار قائلاً « كل ما كتب بإخلاص كتاب مقدس ، وكل ما جاء سليماً من الالتواء والعوج فهو منى »

ولم يكن وليم ينفجز بريان ينتظر أن يجد الرب هكذا غير عابئ بمصالحه خارجاً على دينه فأحس بأن عقيدته قد أخذت تتداعى

وتنهار ، فشعر الرب بالحزن من أجله فقال له فى رفق « استمع ، لقد حاربت بشجاعة دفاعاً عما بلغ إليـه علمك ، وهذا لا يحسب عليك ، ولـكنك لم تدرك غرضى الإدراك كله ، وسأحاول أن أجعلك ترى ما رميت إليه » .

ماري استيوارت : «أحاول ؟» أليس ربنا قادراً على كل شيء ؟

فولتير : لقـد قال « أحاول » ، ومحتمل أن ذلك كان احتياطاً بارعاً ليبذل بريان من جهـده الخاص فى تفهم الدرس الذى كان مقبلاً على تلقيه ، لأن الرب لو مكننا من أن نفيد بسخاء من قدرته على كل شيء لألقينا عليـه — نحن البشر الـكسالى النوكى — عبء القيام بشئون الدنيا كلها .

وبدأ الرب عمـله فى إنارة عقله بتوجيه هـذا السؤال إليه « أتتذكر ما حدث لمـا وجدت سارة أنها عقيم ؟ » فاسترد بريان ثقته بنفسه « نعم يا رب إنها فى الآية الثانية من الإصحاح السادس عشر فى سفر التكوين .

« فقالت ساراى لأبرام هو ذا قد حبسنى الرب عن الولادة فادخل على أمتى لعلى يبتى بنى منها ، فسمع أبرام لقول ساراى »

فشجعه الرب قائلاً « أجدت وأحسنت ، خبرنى الآن ، إذا افترضنا أن السناتور الأمريكى هو أقرب نظير تاريخى لرب الأسرة فى بنى إسرائيل القدامى فكم من زوجات أعضاء مجلس الشيوخ فى مثل ذلك الموقف يستحضرن لمضاجع أزواجهن خادمتهن المصرية ؟ »

« يا رب ، لست أفهم فهماً تاماً ، كيف .... ؟ والخادمات المصريات جد قليلات فى أمريكا يا رب ، ولسن من البيض وعدد جد قليل منهن الذى يسمح بدخوله »

فقال الرب محاولاً تقريب شقة الخلاف « حسن لنقل خادمة مكسيكية »

« لا ، أنا لا أصدق . . . . . . وأظن فى أمانة وإخلاص أنه لا يستطيع إنسان فى أمريكا أن يفعل هذا ، والعقم ليس من الأشياء التى يهتمون بهـا كثيراً فى أمريكا ، ومهما يكن من الأمر فإن الفكرة نفسها لا يمكن تصورها فى عصرنا هـذا بأمريكا ، ولقد تغير الزمن بطبيعة الحال وتبع ذلك تغير العادات .

فابتسم الرب راضياً مقتنعاً به وقال « فى لهجة أبوية » حسن يا ولدى وليام يننجز بريان ، حقيقة أن الأزمان تتغير ويتغير معها الأشياء والناس وهما من نسيج الزمن ، وهذا هو بالضبط ما عناه دارون وما قصدته بالنشوء والارتقاء ، وترى أنه ليس فيه ما يثير الضجة ويهيج الخواطر ، ولأضف إلى ذلك أنه لا يهمنى كثيراً ، ولقد بدأت سيرة حياتى إلهاً لأمة صغيرة غامضة الشأن من الأمم السامية فى آسيا الصغرى ، ويلزم أن أعترف بأنى كنت إلهاً قوى الأهواء سيئ الأخلاق لا أستجيب للعقل ، ولـكن خطرت لى فكرة بارعة ، فأرسلت إلى الأرض رسولاً قوى الإيحاء ، وبفضل كلمته ازداد عدد عبادى وتعاظمت قوتهم حتى اكتسحوا العالم ،

وهذا النجاح جعلني أسمى شخصيتى المقدسة لأواجه تبعاتى الجديدة ولولا النشوء والارتقاء لما استطعت القيام بهذه المحاولة ، ولا ريب أن محاولات جديدة من هـذا القبيل ستصبح لازمة كلما ازدادت سـيطرة مخلوقاتى على أساليب الطبيعة ، وأنا أعتمد على النشوء والارتقاء فى تحقيقها ، وأملى أن أظل أتطور تدريجياً حتى أصبح إلـه العالم بأجمعه »

ماری استيوارت : (متجهة إلى جيتى) ماذا تقول ؟

جيتى : إن خيال المسيو ڤولتير يقظ يقظة ذكائه وقوة بادرته

واشنجتن : أسلم بذلك ، ولـكنى كنت أود أن يستعملهما فى أشـياء أقل قداسة ، وأملى أن يسمح لى بأن أذكره أننا نحن الأمريكيين نحترم الـكتاب المقدس احتراماً عظيماً .

ماری استيوارت : أأنتم تفعلون ؟ إن رعيتى الإسكتلنديين كانوا يلقون الموت من أجله ... ويقتلون كذلك .

ڤولتير : الناس فى كل زمان متأكدون من أنهم سيجدون كتاباً يموتون ويقتلون فى سبيله ، وفى هذه الآونة هذا الـكتاب هو كتاب رأس المـال .

واشنجتن : حسن ، دعونى أتجه إلى مؤلفـه ، مع تقديمى الاحترام اللائق يا دكتور ماركس لا أستطيع أن أقول إن آراءك عن العبودية كانت آراء علمية ولو أنها كانت ، وأنا متأكد من ذلك ، كما كنت أنتظر من رجل ذكى المشاعر ، لأن الجماعات

الإنسانية هى مجموعات تاريخية متكتلة تستمد صورتها ولونها من ركن الأرض التى تحويها وزاوية الزمن الذى يشملها ، وهى تنمو وتتقدم حسب قدرتها لاحسب رغبتها .

نابليون : أو حسب ما نريده لها ، والدكتور ماركس قد حول حتى تغيير الدنيا بكتاب .. . إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ولقد غيرتها بسيفى ، وكذلك فعلت أنت يا جنرال واشنجتن .

واشنجتن : لم أكن سوى آلة فى يد قوى . ولكن هذا يذكرنى بأن الدكتور جيتى قد سألنى عن رأيى فى القيادة ، وأنا شديد الإعجاب بصفات إمبراطور الفرنسيين الحربية ، ولكنى واثق من أنه سيسامحنى لقولى إنه أخطأ فى قبوله التاج الإمبراطورى

نابليون : لم تكن هناك كما تعلم يا عزيزى الرئيس . وركن التاريخ الذى احتوانى ، وزاوية الأرض التى ضمتنى وهى فرنسا كلاهما لم تعرف أحواله .

واشنجتن : لقد كنت معاصراً لك حيناً من الزمن ، وكانت شمسى تشرق على البوتوماك حينما كانت شمسك طالعة على السين ، وكم كنت أفكر فى فرنسا وبطلها الشاب وأعجب وقد استولى على الصمت فى جبل ڤرنون وأنا أتأمل النهر العظيم يتدفق إلى نهايته وعودة ميلاده وأتأمل نهر حياتى الخاصة كذلك وهو يتدفع إلى الموت والعودة الجديدة إلى الميلاد ، ومن تلك المشارف المستضيئة الساجية كنت أتابع سير حياتك دائما فى دهشة وتعجب وحيناً

فى أسف ، ولو كنت غدوت الحارس الأمين لحريات الناس لأوجدت لا فرنسا الحديثة وحدها وإنما أوروبا الحديثة بأجمعها .

نابليون : هذا ما كنت أحلم به .

واشنجتن : هكذا كان حلمك . . . جد متأخر . . . حينما غودرت فى سنت هيلينا وخلوت بأفكارك .

نابليون (كأنه يوجه الحديث إلى نفسه) : ولكن مثل هذا الحلم بضرورة الحال إمبراطورى ، وهو أنبل طموح يمكن أن يتصوره الأوروبى ، أوروبا ! قارة مجيدة ، والدعامتان التاريخيتان — الإمبراطورية والبابوية — شاهدان جليلان لوحدة أصبحت لازمة منذ زمن طويل ، ومجموعات منظومة من العبقرية الإنسانية تضىء فى سماء الروح بشتى أضواء العلم ومباهر الفن وبوهج الأخلاق والشجاعة والكشف ، وسلاسل من المدن كالجواهر التى تسدر الأبصار على امتداد أنهارها اللجينية ، وذكريات لمشاهد تمثيلية فخمة تملأ ذاكرات الجميع ، وندوة طائفة من الرجال العظماء ومصالح مشتركة ، وروح أسبغت عليها القداسة قرون من الحياة العامة المشتركة . . ومختلف العناصر التى يتكون منها وطن عظيم ، ثم عاصمة مثل فينا وكأنما أعدتها العناية عند ملتقى حضاراتها ولغاتها وأنهارها ، وهى قاعدة أقدم بلاط ناضج على استعداد للسقوط من يد أسرة شائخة واهنة ... ينقصها رجل واحد ، ملك واحد .

وهذان الرجلان الصغيران اللذان يلعبان الدور الإمبراطورى على المسرح الأوروبى لا يبدو أنهما يدركان عظمة العمل الذى ينتظر الأوروبى الأول الذى سما إلى مرتبة أعلى من مرتبة الرجولة ... ألمانيا ! إيطاليا ! أى شأن لها ؟ إنهما مجرد أقليمين من أقاليم أوروبا ، وهو يخال العظمة فى القبعة التى يضعها على رأسه فى حين أنها يجب أن تكون فى الأفكار التى يحملها بداخله ، إيطاليا ؟ هو يستطيع أن يجعلها عظيمة كما روم — إنها لن تكون أعظم من نفسها ، لقد طبعا الآلة ، ولكنهما لا يجسران على استعمالها ، يجسران ! هما لا يعرفان كيف يستعملانها ولا لأى غرض تستعمل .

يتنازعان ڤينا ! ڤينا ! وكلا الرجلين الصغيرين العظيمين لا يرى هناك ... هنالك تاج أوروبا ينتظر الرأس والقلب الكبير ليحملاه.

واشنجتن : لقد ولدت جد متأخر ياسيدى ، وهتلر وموسولينى جاءا متأخرين أكثر منك ، والأيام التى كان يتم فيها الاتحاد فى وطيس الحرب قد ولى عهدها ، وأصبحت الناس لا تقبل الخضوع ، ويجب أن يقتنعوا لا أن يغلبوا

كارل ماركس : لا يمكن أن تقنع الرأسمالى بأنه لص .

مارى استيوارت : إذا كان حقيقة لصاً فهو لا يبالى كونه كذلك وسيبادر إلى الاقتناع ليتخلص من الحجة !

نابليون : تقنع . . . تغلب . . . هما طريقان إلى النفوس المغلوبة ، فأنت تقنع من تغلبه ، وتغلب من تقنعه

كارل ماركس : هذه المرة قد اتفقنا ، ونحن نريد التغلب على الرأسمالى ثم نقنعه بعد ذلك ، ولا نبالى إذا لم نصنع ذلك

جيتى : هنا ، فى رأيى ، مصدر متاعب العصر الحاضر ، والدكتور ماركس ربما لم يكن اقتصادياً علمياً ، وبطبيعة الحال لا يمكن أن يكون كذلك لأن الاقتصاد ليس علماً .

كارل ماركس : مما يؤسف عليه يا دكتور جيتى أنك ، وأنت من رجال العلم ، تنضم إلى جماعة هؤلاء الذين يسخرون من الاقتصاد لأنه علم فى مبتدأ أمره .

ڤولتير : ولكنكم تطنطنون بها كأنها نتائج أكثر منها مقدمات .

جيتى : الاقتصاديات يا دكتور ماركس ليست علماً ، وهى تحوى بنسب متفاوتة إحصائيات وسيكولوجيا ، والإحصائيات علم من الناحية النظرية ولكنها لون من ألوان الحظ والنصيب من الوجهة العملية ، والسيكولوجيا ليست علماً وإنما هى ضرب من ضروب الحدس والتخمين ، والمزيج المكون من الاثنين فى أحسن حالاته رأى منظم ، ومهما يكن من الأمر فإن الحقيقة هى أنك — سواء أكان هناك أساس علمى أم لا — قد أشعلت حرب طبقات قد أخذت فى العصر الحاضر تستجمع قوتها وتعد عدتها ، ولهذا

اقتضى ذلك فى هذه الآونة رد فعل قوى ، وكلا الشيوعية والفاشية أنت باعثه ومثيره ، فالشيوعية لأنها حرب طبقات ، والفاشية لأنها رد فعل دفاعى لمقاومة حرب الطبقات ، ولما كانت أوروبا موشكة أن تسوى اختلافاتها التاريخية فإن خطر حرب الطبقات استدعى وجود الفاشية ، والفاشية أعادت القومية .

كارل ماركس : لا تلق هذه التبعة علينا ، إن حرب الطبقة ليس من اختراعى ، وقد بدأ مع الرأسماليين ، وهم المعتــدون الحقيقيون .

جيتى : التفــكير العاطفى يؤدى دائما إلى الخطأ ، وســلوك الرأسماليين فى القرن التاسع عشر - وسلوك الــكثيرين منهم حتى فى هذه الأيام - لا يمكن الدفاع عنه ، ولــكن لم تــكن المسألة حرب طبقة ، وبعضهم كان يطبق بإخلاص وجهة نظر للحياة خاطئة ، وويلبر فورس الذى جاهد جهاداً شاقاً لمحو العبودية كان يقاوم مقاومة شديدة أى قانون لحماية العمال فى إنجلترا ، ولا يخطر فى بال أحد أن يتهمه بالنفاق ، وغيرهم كانوا ولا يزالون يستغلون الفردية أحسن استغلال أو أسوأه ، ويتصرفون تصرفاً فوضوياً ، ولــكن حرب الطبقة لم تــكن فى بالهم .

كارل ماركس : إنها موجودة الآن .

جيتى : أنت وضعتها هناك ، ومع ذلك فإن التقــدم مستمر منذ ذلك .

كارل ماركس : كان على العمال أن يحاربوا لكسب كل شبر فى طريقهم .

ڤولتير : الفضل فى ذلك للحرية وللأحرار ، فى حين أنكم أنتم تلغون الحرية وتطلقون الرصاص على الأحرار أو تنفونهم .

كارل ماركس : مجرد ضرورة وقتية .

ڤولتير : إذا كنت أحكم بتجربتكم الأولى فلا شىء يستمر ويبقى مثل الضرورات الوقتية ، وبعد مرور عشرين عاماً على البلشفية فإن النظام القضائى فى موسكو وفى ليبزج برهان ساطع على حكمة ذلك الجاويش الذى عرف « ربع الدورة لليمين » بأنها كربع الدورة لليسار ، وغاية ما فى الأمر أنها العكس .

واشنجتن : ليس العدل والحرية مجرد صفتين يتصف بهما مجتمع متحضر ، وإنما هما روح هذا المجتمع ، ولا يمكن أن يدوم مجتمع بلا حرية ولا عدالة ، بل لا يمكن أن يقال إنه كان له وجود حقيقى ، وإلا فكيف تضمن التسوية الذاتية بين المواهب والتبعات والإخفاق وخفاء الشأن ؟ وليس هناك سوى اختيار الحرية أو الطغيان ، فإذا ألغيت الحرية فسم طغيانك ما تشاء — فاشية نازية ، دكتاتورية الصعاليك أو أى اسم آخر — والطغيان هو أقصرها وأصدقها ، وذلك لأنه حينما لا يسمح للحرية بأن تضع الرجال فى المناصب والمنازل الملائمة لهم فإنهم سيوضعون فيها حسب إرادة الطاغية .

كارل ماركس : ليس للحرية سوى أن تلوم نفسها إذا رأت الناس ينبذونها ، فقد بدأت هى بنبذهم وسمحت للتجار بأن يدخلوا معبدها ويدنسوا حرمته ، وليس هنـاك علاج سوى مجاهدتها ، ويلزم أن تولد من جديد فى حمام من الدم وتتلقى دروسها الأولى تحت إشراف مدرس صارم .

واشنجتن : لا يا سـيدى ، سامحنى إذا قلت لك إنك تفكر تفكير أسيوى ولد فى أوروبا ونشأ بهـا ، وأخبرك أننا ننوى أن ندبر الأمور فى أمريكا على نظام آخر ، ونجعلها دمقراطية حقة .

كارل ماركس : أمريكتك يحكمها الأثرياء يا جنرال واشنجتن وأنت نفسك قلت إنها تغيرت منذ عهدك .

واشنجتن : لقد تغيرت ، وكثير من التغـيرات التى طرأت عليها أعجب بهـا وتجعلنى أزهى بمـا كان يوماً مجموعة صغيرة من الولايات ، وبعضها لا يلائم ذوقى ، والدمقراطية الحقة يلزم أن تدبر الأمور بحيث يتمكن خير أبنائها من تسنم القمة ، وفى أمريكا كما عهدتها قد رأيت بين من تداولوا الرئاسة بعدى رجالاً أوجعوا قلبى من الذلة والاستخذاء ، ولست أستطيع إنكار ذلك ، والدمقراطية قد تتورط فى الخطأ ، ولـكنها لن تموت إلا إذا سمحت بالقضاء على حرية الفـكر ، وآمل وأعتقد أن بلادى لن تقر ذلك .

كارل ماركس : حرية الفـكر لا تنقذها من الحرب الداخلية

بين الأثرياء الذين يملكون ثروتها والعمال الذين ينتجونها .

فولتير : (مخاطباً كارل ماركس) : أنت نبي حقاً يا سيدي ولهذا تتأبى على العقل .

واشنجتن : حرية الفكر ستنقذ أمريكا من الحرب الداخلية، لأن الأثرياء لن يستطيعوا مقاومة ضغط الرأي العام ، والعمال أعقل من أن ينالوا بالحرب ما يستطيعون نيله في ظلال السلم ، وهناك حدود للمعقول والعدالة ، وهذه الحدود ستظهر .

جيتي : أعتقد أن الرئيس على حق ، ولكن الأمريكيين عليهم أن يتعلموا ويجهلوا أشياء كثيرة في خلال هذه الحركة ، عليهم أن يتعلموا قيمة عدم المساواة والمساواة ، وإذا لم يزدد العقل الأمريكي تراكباً وتعقيداً ولباقة ودقة فمن المؤكد أن أمريكا صائرة إلى الشيوعية .

واشنجتن : الشيوعية ؟ أكثر الأمم أخذاً بالمبدأ الفردي في العالم ؟

جيتي : سامحني يا عزيزي الرئيس ، أمريكا ليست البتة فردية حينما تقاس إلى غيرها من البلاد ، وإنما هي أدخل في القطيعية والجماعية ، لاحظ كيف أن الميسورين من رعاياها لا يجشمون أنفسهم مشقة إقامة سياج حول أرضهم فترتفع منازلهم صعداً فوق أرض مشتركة في نوع من المشاع والاختلاط لا يشبه بحال البيوت الإنجليزية التي يتحرى المحافظة على عزلتها وتفردها .

واشنجتن : يخيل إلى أنه تطور حديث .

ڤولتير : هناك غير ذلك يا عزيزى الرئيس مما يجعل سليلة إنجلترا — التى كانت فى عهدك تشبه أمها — غريبة فى ديار أمها ، فإنجلترا أرستقراطية ، وأمريكا دمقراطية ، وأمريكا تحكم العقل فى أمورها ، والإنجليز يكرهون التعويل على العقل ، والأمريكى يتحدث إلى كل إنسان ، والإنجليزى لا يتحدث إلى أحد ، وما يسميه الإنجليزى المصعد (left) ، يسميه الأمريكى الرافع (elevator) لأن الإنجليزى يحتفظ بالارتفاع للأفكار ، فى حين يستعمل الأمريكى الإنهاض ، وهذا يرينا أن الإنجليزى يمنح شرف اللفظة اللاتينية للحركات الأخلاقية ؛ على حين يمنح الأمريكى مثل هذا الشرف للحركات المادية ؛ وفضلاً عن ذلك فإن إنجلترا بلاد الطبقات وأمريكا تكاد تكون لاطبقات بها ، ومن ثم فإن غرض الإنجليزى الاجتماعى هو أن يظل غير ملحوظ فى حدود طبقته ، وهو لذلك لا يسهب فى وصف تأثراته ويرفع قيمة الألفاظ بمنحها مادة عظيمة من المعنى ، ومشكلة الأمريكى هى أن يسترعى الملاحظة بين هذه الكتلة التى ليس بها طبقات ، ومن ثم هو يبالغ فى تأثراته ويفخم اللغة ، والتأثير الذى لايكاد يحمل جفن الإنجليزى يطرف يهز الأمريكى هزاً ، وما يثير شعور الإنجليزى أو اشمئزازه يكون بمثابة رفسة للأمريكى .

واشنجتن : الآن ، الآن يامسيو ڤولتير ألست مبالغاً ؟

فولتير : أبداً ياجنرال ، الأمريكي لا يخفض الأسعار ، وإنما يخفض الضرائب أو يلغيها مباشرة ، وهو لا يُفَاجَأ ، وإنما يُصْدَم صدماً ، ولقد شاهدت إعلاناً حديثاً فى إحدى جرائد نيويورك عن مطعم . . .

واشنجتن : مطعم ؟

فولتير : حانة كما تعرف أو مكان لتناول الطعام ، حسن ، هذا المطعم يقدم الخضراوات الغضة المليئة بالفايتامينات

جيتى : لست منصفاً الإنصاف كله إذا كنت تستحضر لغة الإعلان والتشهير !

فولتير : أكون منصفاً إذا استطعت أن أظهر أن لغة الإعلان لا تؤدى بالبريطانى العاقل إلى مثل هذا الشرود فى الخيال ، ولكن مادمت تتحدى لغة الإعلان فإننى سأنتقل إلى لغة السياسة ، وأسأل الرئيس واشنجتن ما الذى فعله ليصبح رئيس الولايات المتحدة ؟

واشنجتن : لم أفهم ما تريد .

فولتير : كان عليك أن تعبر عن رغبة رسمية فى ترشح نفسك للانتخاب .

واشنجتن : حسن ، لقد رشحت نفسى .

فولتير : أوه ، لقد رشحت نفسك ، أتعرف ما يعمله خلفاؤك الآن ؟

واشنجتن : لا أجترئ على التخمين .

ڤولتير : إنهم يجرون وراء الرئاسة ، وهم لا يزالون يرشحون للبرلمان فى إنجلترا .

واشنجتن : يجرون ! بدلا من أن أجرى كنت أفضل البقاء فى جبل ڤرنون .

مارى استيوارت : كان كل إنسان يصبح خاسراً ، حتى أنت نفسك يا جنرال واشنجتن ، لأنك قد مارست تلك التجربة الرائعة تجربة خلق أمة ، وهى فرصة لم تمنح إلا لأفراد قلائل من الأحياء ، ولقد أتيحت لى ولكنى أضعتها !

واشنجتن : إن قوتنا الخالقة لا تذهب بعيداً فى ذلك السبيل يا سيدتى ، وهأنذا أتعلم حقائق كثيرة عن أمتى من المسيو ڤولتير ومن المسيو جيتى .

جيتى : إنى أشاركك فى شعورك أيها الرئيس واشنجتن ، وأنت أرستقراطى أمريكى حر النزعة ، والحقيقة أنك إنجليزى نقل من منبته ، ولذا لم تر فى بلادك وهى تنمو إلا الملامح التى كنت تألفها فى طفولتها ، ولكن العقل الأمريكى فى صورته الحاضرة لا يستطيع أن يواجه الشيوعية بشىء سوى مصالح الطبقات المالكة ، ومثل هذا السور لا يكفى لمقاومة هجوم مثل أعلى ، والناس فى المدى المتطاول تتبع دائماً الطريق الأكثر مثالية .

كارل ماركس : لا يكون ذلك حتى يروا أين هو .

جيتى : ستعنى بذلك يا دكتور ماركس ، وسيرتطم الأمريكيون فى الشيوعية إلا إذا قاوموا فى نفوسهم تلك النزعة التى تجعلهم يرون المجتمع الإنسانى آلة من الآلات .

كارل ماركس : إنه صائر إلى أن يكون آلة أكثر فأكثر .

جيتى : أقل فأقل كلما توافرت عنده الآلات ، وكلما أخذ العبيد الآليون مكان العبيد الذين كانوا فى الماضى يشتغلون بأيديهم فإن أعمال الحياة الشاقة تصير أقل من القليل ، وتزداد حرية الناس للاستمتاع بالصحة وأوقات الفراغ ، والمجتمع السياسى أقرب إلى أن يكون مجتمعاً عضوياً منه إلى أن يكون مجتمعاً آلياً ، ومتى استبانت هذه الحقيقة فإن معظم الخلافات السياسية والاجتماعية التى تفرق بين الناس تزول وتختفى .

كارل ماركس : أشك فى ذلك ، الناس لن تفهم ما يخالف مصالحهم

فولتير : ألك مصلحة شخصية فى الاشتراكية ؟

جيتى : لا أحسب أننا فى حاجة إلى أن نعود إلى ذلك ، ومتى عرف الناس أن طبيعة المجتمعات الإنسانية عضوية فلا يعنينا كثيراً هل الذى يربطهم بعضهم ببعض ويؤلف بينهم هو المصلحة الذاتية كما هى حالة البعض أو حاسة اجتماعية أسمى كما كان — من المؤكد — الدكتور ماركس ، والمجتمع متى فهم يسود .

مارى استيوارت : أشعر بأنك على حق يا مسيو جيتى ، ولكنى لست واثقة من أنى أعرف لماذا ! وشعورى أن مجتمعك

يسود ويبقى لأنه يعمل من أجل الأعضاء على حين تعمل الأعضاء من أجل الكل .

جيتى : هذا أسلوب تجريدى أخلاقى فى وضع المسألة ، وأرى أن فى الأمر شيئاً أكثر من الناحية الأخلاقية ، وهو الحياة ، وأنا أتفق مع إمبراطور الفرنسيين حينما يقول إن الحياة لا تجرى على سنن العقل ، ولكنى لست معه إذا كان يقصد بذلك أنها فوضى .

نابليون : إنها فوضى إذا كنت تقصد بالفوضى ما يقولونه فى إسبانيا وهو أن السمك الكبير يأكل السمك الأصغر .

جيتى : هذه قصة أخرى — قصة الحرب بين العضويات المختلفة ، ولكن الحياة فى حدود العضوى ليست فوضى ، وكينونتك يسيطر عليها سيطرة تامة توافق سعيد بين المبادئ العضوية ومبادئ المنافسة ومبادئ التعاون ، وبلوغ مثل هذه الحالة من العافية والصحة الذاتية هى الغرض الحقيقى للمجتمعات كلها سواء كانت تدركه أولا ، ولهذا السبب فإن كلا الفاشية والشيوعية نظام بال عتيق لأنهما نتاج عصر آلى .

ڤولتير : إنهما نظامان يبنان على الكسل والخمول مثل أكثر التطبيقات الآلية ، وهما نظامان يوفران العمل كما يسمونهما فى إنجلترا ، لأنه ليس أشق من حكم أحرار الرجال ، على حين أنك إذا أخذتهم بالنظام الآلى وجعلتهم بأجمعهم مثل المسامير الخشبية ليلاءموا

آلتك الحاكمة فلا شيء أيسر من حكمهم ، وليس عجيباً أن تكون الديكتاتورية قد اخترعت فى روسيا حيث يفقد الناس وعيهم حين يرون أى ضرب من ضروب العمل .

ماري استيوارت : — أفهم أن تكون هنالك لأنهم لا يعرفون شيئاً آخر ، ولكن كيف تملها فى ألمانيا وإيطاليا ؟

جيتى : — ليس لألمانيا ولا لإيطاليا تجارب فى الحكم ، وهما أقدم الأمم الأوربية ، ولكن برغم ذلك فإن حكومتيهما أحدث الحكومات سناً ، فهما يعيشان فى القرن السادس عشر .

نابليون : هنالك شيء آخر أكثر من ذلك ، فالدمقراطية تسفر عن حكومة الجماعات ، والجماعة مؤنثة فهى فى حاجة إلى مروض الأسود ، وموسوليني واستالين مروضا أسود .

فولتير : هتلر ساحر ثعابين .

واشنجتن : إسمحوا لى ياسادة ، أنا لست فاهماً ، أهذا ماصارت إليه الدمقراطية ؟ .

جيتى : إنها نوبة من الشك عارضة يا عزيزى الرئيس ، وهذا الطور الآلى له تأثير سيء فى معظم الدمقراطيات ، ومع ذلك فأنا متفائل ، والعصر القادم عصر التصور العضوى للحياة ، وحينما يسود هذا التصور سيكون للمساواة وعدم المساواة ما يصونهما ويحميهما ، لأن المجتمع سيدرك أن بعض الناس صالحون للحكم على حين أن غيرهم صالحون لكنس الشوارع ، وسيكتفى بأن تكون

الامتيازات فى الحدود الطبيعية لأن الطبقات الحاكمة ستعرف أن الاستفادة المفرطة من الحكم تعود عليهم بالضرر ، وستكون الحرية مكفولة لأن الحرية هى قانون الحياة جميعها وهى الطريقة الوحيدة للتمييز بين الطيب والخبيث التى تعمل بذاتها .

واشنجتن : يسرنى أنك لا تشترك فى الفكرة الخاطئة الشائعة اليوم فى بلادى عن المساواة ، وفى عصرى ظهرت بوادرها فى رجال مثل جفرسون الذى كان رجلاً ذكياً ولكن بدون بصيرة نافذة فى الحياة الواقعية ، وأبناء بلادى — معظمهم على أى حال — يعتقدون أنه يمكن تنظيم أى بلد من البلاد على أسس آلية وعلى قواعد المساواة ، وهم لا يدركون أن دمقراطيتهم ما كانت لتولد لولا وجود أرستقراطية ، وأقصد بها طبقة من الأشخاص لهم بصر بالقيادة وفيهم روح التضحية .

جيتى : الصعوبة التى يجدونها فى إدراك هذه الحقيقة طبيعية لأن تعقيدات الحياة العضوية تغيب فى الغالب عن علم القوم الذين ليس بينهم مزارعون ، والمزارعون هم مستودع حكمة الأمم ؛ ومن المزارعين تنبعث حيوية الأمة الروحية ، فمن صمت المزارع الطويل ينبغ باخ وموزار ؛ ومن نظراته المسترسلة ينبغ تنتورتو وميشيل أنجلو ؛ ومن تجربة المزارع المستفيضة يظهر ريشيلييه وبسمارك ، والولايات المتحدة فى العصر الحاضر ليس بها سوى قليل من المزارعين أو ليس بها مزارعون على الإطلاق ؛ وهذا

يفسر هذا الإيمان بالديموقراطية الذى لا يقف عند حد .

نابليون : الاشتراكية فى صورتها القائمة على المساواة هى تصور قوم ليس عندهم مزارعون ، والدكتور ماركس ، إذا لم أكن مخطئاً ، يهودى .

ڤولتير : يلقى المسيحيون الآن مايستحقون ، فقد فرقوا ما بين اليهود والأرض ، واليهود اليوم يفرقون بينهم وبين الأرض .

جيتى : هناك يهود ويهود ، ولما كانت الشيوعية تصوراً آلياً للمجتمع فهى لذلك تروق العقليين الذين لا بصيرة لهم ، ولهذا ينزع إلى الشيوعية فى هذه الأيام الكثيرون من المدرسين والأساتذة ؛ واليهودى المتحرر الذى نبذ دينه وقطع وشائجه ووجد نفسه معلقاً فى الهواء لا يرجع إلى أصل وليس له مزارعون ولا أرض ولا تقاليد يلتمس فى الشيوعية الزمالة الروحية التى لا يستطيع أن يعيش بدونها إنسان ؛ واليهودى المتعصب لشعبه سواء كان محافظاً أو غير ذلك ليس شيوعياً ، وهو فى الغالب شديد الشعور بالروح الحية بحيث يتشبع فى يسر وسهولة بروح الأمة التى يلوذ بها ويستوطن بلادها ؛ ولقد كان دزرائيلى إنجليزياً عظيماً ، وكان راتيناو ألمانياً عظيماً ، وبلوم فرنسى عظيم

كارل ماركس : بلوم ماركسى

ڤولتير : إنه أحجى من أن يكون ماركسياً قحاً ، وقد ولد مرة ثانية فى فرنسا ولهذا فيه عنصر المزارعين .

واشنجتن : ولـكن إذا كانت آراؤك حقاً يا دكتور جيتى فإن العالم لا بد أن يكون مقبلاً على تغيرات عميقة الأغوار لأن المزارع ، لا من حيث هو عامل اقتصادى ، وإنما من حيث هو عامل روحى ونفسى فى المجتمع — وهو الأسلوب الذى تراه به إذا لم أكن أخطأت الفهم — أقول إن مثل هذا المزارع لايقوى على مقاومة تأثيرات التربية والسينما والراديو مجتمعة

جيتى : هذه حقيقة مؤكدة ، فالمتعلمون ، وأقصد بهم يامسيو ڤولتير الذين يستطيعون قراءة الموسوعات ، مغرورون إلى أقصى حد ، وهم يخالون معرفتهم شيئاً له قيمة عظيمة ، ولما كانوا على جانب من السذاجة وحسن النية فهم يميلون إلى أن ينفحوا بها من يسمونهم المزارعين الجهلاء ؛ وهو خطأ خاص بطبقة تعتقد أن ضروب المعرفة كلها تأتى من الكتب ، أضف إلى ذلك السينما والراديو ، ولا يستطيع أحد أن يسبر مدى تأثير مثل هذا الانبثاق الفجائى للأخيلة والأصوات والأفكار المجهزة فى نفس المزارع ، والثورة العالمية الحقيقية على وشك الابتداء ، وليست هى ثورة اقتصادية وإنما هى ثورة نفسية .

المنظر الرابع

ماري استيوارت : أود أن أعرف ما معنى ثورة نفسية .

جيتى : سأريك لوناً من ألوانها .

[يرفع جيتى يده فتظهر روح إيريس جلترستار مظلمة قائعة إلى جانب الجمع المستثير اللامع ، وهى فى ثوب الاستحمام الذى لا يستر الكثير منها — وقد استولى الفزع على مارى استيوارت حين أبصرت هذه الروح الأرضية كما لو كانت على ظهر الأرض وشاهدت روحاً غير أرضية ، ودنت من جيتى]

جيتى : (إلى مارى استيوارت) لا تخشى شيئاً ، فليست سوى زائرة من الأرض قد تركت جسدها راقداً .

إيريس جلترستار : (وهى تفرك عينيها) لا بد أن سنة من النوم أخذتنى وأنا إلى جانب بركة السباحة ، ولحسن الحظ لم أتدحرج وأهوى إلى الماء ، ولكن ... ما هذا ؟ هؤلاء الناس كلهم ؟ ... حسن ... وما الذى تدبرون ؟... وما لكم منتفخين (يستولى عليها الرعب) من أنتم ؟ ... أجيبوا ... أنتم تشبهون التماثيل المصنوعة من الشمع ... توم ، من هؤلاء الناس ؟ هل أنت هنا ؟ توم ! توم !

(وكادت تفقد السيطرة على أعصابها وتولى هاربة حين بدأ

جيتى يهدئ روعها بمجرد التحدث إليهما من وراء الهاوية السحيقة كما يحدث فى الأحلام)

جيتى : أنت حالمة يا مس جلترستار ، تنوم مستغرق فى النوم ، حدثينى عن أشرطة السينما وما إلى ذلك .

إيريس جلتر ستار : مهما يكن من الأمر فأنت رجل ظريف ، هل تسمح لى أن أسألك عن اسمك ؟

جيتى : إسمى جيتى .

إيريس جلتر ستار : إسم غير عادى ، لم أسمع به من قبل .

ڤولتير : يأتيك العلم وأنت هاجعة أيتها الحسناء ، فنصيبك من الحسن بقدر نصيبك من الحظ الحسن .

إيريس جلتر ستار : أشكرك يا جدتى العجوز ، وجهك من النوع المألوف عندى ، ويبدو لى أنى رأيته على طنف الموقد .

ڤولتير : وساقاك معروفتان عندى يا عزيزتى الغالية .

إيريس جلتر ستار : آه ، ساقا نجمة من نجوم السينما ملك الجمهور كما تعلم ، وهما مؤمن عليهما بمبلغ عشرة آلاف دولار أمريكى

مارى استيوارت : (موجهة الحديث إلى جيتى) إنهما لا تساويان هذه القيمة .

واشنجتن : دولارات أمريكية ؟ يظهر أن أهل بلادى قد غيروا عملتهم .

ڤولتير : واستمالاتها (موجها الحديث إلى إيريس جلتر ستار) ولـكن خبرينى ، ساقاك مؤمنتان خشية ماذا ؟ خشية فرارك ؟ أو فرارها بك ؟

إيريس جلتر ستار : حسن ، أنت بين اثنتين ، إما أنك حاضر الخاطر أو أبله ، إلا إذا كنت تخادعنى ، ويلزم أن أحافظ على جمال شكلهما أفهمت ؟ إن الجمهور يريدهما ويحب أن يراهما ، مفهوم ؟

ڤولتير : إنهما العمد التى تقوم عليها شهرتك .

إيريس جلتر ستار : (مع الإعجاب) لله أنت ! من علمك ذلك ؟

جيتى : يا مس جلتر ستار خبرينا ما هو فى رأيك سبب نجاح فلم من الأفلام ؟

إيريس جلتر ستار : سلنى سؤالاً آخر يا مستر ....

جيتى : جيتى

إيريس جلتر ستار : يامستر جيتى ، أما السبب فلايعرفه أحد ، وهؤلاء الرجال الـكبار فى مصانع الأفلام يجهلون سواء فى ذلك الحصيف منهم والسخيف ، وكيف يتسنى لنا معرفة ذلك ؟ فى بعض الأحيان يرجع النجاح إلى القصة وأحياناً يكون سببه الرجل الذى يقوم بالدور الرئيسى أو الفتاة ، وبطبيعة الحال لابد أن يكون فى الموضوع قصة حب ، ويلزم أن تـكون خيالية حافلة بالوقائع والمغامرات ، بها أخطار تقتحم ورصاصات تطلق وجوائز ليظفر بها

والـكثير من مظاهر الترف والنعمة وملابس السهرة والرقص والمجوهرات والفراء الجميلة الغالية الثمن والسـيارات الفخمة ، ولا فائدة من ذلك كله إن لم يكن للفتاة جاذبية جنسية (وهى تفـكر) ... والشاب كذلك (تتجه إلى مارى استيوارت) ألم أرك ونحن نخرج رواية ذى اللحية الزرقاء ملك إنجلترا ؟

مارى استيوارت : إنى واثقة من أن هذا لم يحدث .

إيريس جلترستار : آسفة ، لقد كانت رواية حافلة ، فيها الـكثير من المواقف الغرامية وما إلى ذلك من الأشياء .

ڤولتير : وما نوع هذه الأشياء ؟

إيريس جلترستار : كما تعرف ، التقبيل والضم وما إلى ذلك ، الجماهير تحب هذا .

واشنجتن : (مخاطباً نفسه) تغير تام من جماعة إخوان بلايماوث !

إيريس جلترستار : (موجهة الحديث إلى وشنجتن) والآن من المؤكد أننى رأيتك !

ولماذا ؟ أنا واثقة أن لك صوراً شمسية فى كل مكان بالديار ، من أنت ؟ لنكولن ... لا ، ليس لك شاربان ، وهو لا يلبس شعر الرأس الصناعى ، من يمكن أن تكون ؟ ... (صارخة) أى شىء مثير للنفس ! الجنرال واشنجتن ! توم ! توم لقـد رأيت الجنرال وشـــــ .

(يرفع جيتي يده فتختفي) .

جيتي (بهدوء أولي) هذا هو نوع الشيء .

كارل ماركس : هذا هو نوع الشيء الذي يحدث في البلاد الرأسمالية ، ولكن في روسيا السوفييتية الفلم نوع من الفن .

جيتي : الآن يادكتور ماركس قد بدأت تجربتي ، في روسيا على الدوام أقلية من الناس ذوقهم مستنير وأكثرية من المزارعين لهم ذوق فطري ، والأفلام الروسية في العصر الحاضر صالحة لأن البلاد لاتزال تعيش على رأس المال الفني الذي ورثته عن الأيام السابقة للثورة ، ولسنا ندري ماذا يصير إليه أمره يوم يكتفي المزارع بالتعويل على العقل .

ڤولتير : ملاحظة الدكتور ماركس تظهر أن الفلم لا يكون بضرورة الحال رديئاً .

جيتي ! هنالك من غير شك أفلام جيدة ، وهي في تكاثر وازدياد ، كما أن هناك ممثلات بارعات ، ولسن جميعا في براءة أختنا الصغيرة جلترستار ، والذي أريد أن أقرره هو أن الأفلام قد تكون رديئة من وجوه كثيرة ، مثل الروايات التمثيلية .

ماري استيوارت : ولكن الروايات التمثيلية يمكن أن تكون كذلك .

جيتي : بالضبط ، أو بسبب تأثيرها في الجمهور .

ڤولتير : من حيث هي روايات تمثيلية لا بد لها أن تعاني

ماتستلزمه من مصروفات باهظة ، ولـكي يسترد أصحاب المصانع ما أنفقوه يلزم أن يتحروا إدخال السرور على الجماهير الفقيرة من أهل المدن ، ويلزم أن يبسّطوا الموضوعات وينزلوا بها إلى مستوى الآلية والسخف .

كارل ماركس : مثال بارع للتفسير المادى للتاريخ .

ڤولتير : ليس الأمر كذلك حتى تثبت أن سخافة جمهور المدن مردها إلى أسباب اقتصادية .

كارل ماركس : هذه الحقيقة واضحة .

ڤولتير : هى بعيدة عن ذلك ، الحقائق الاقتصادية مجرد صور ثانوية للحياة ، وللحقائق النفسية المـكان الأول .

كارل ماركس : كلام . مجرد كلام .

ڤولتير : أنت فأر مدينة أو فأر ريف ، هذا حقيقة ثانوية ، أنت فأر ، هذه حقيقة أولية .

مارى استيوارت : أرجو يامسيو ڤولتير أن تقلل من الفـكاهة وتكثر من الوضوح .

ڤولتير : مكانتك الاجتماعية — المدينة ، الريف ، الغنى ، الفقر — حقيقة كلّـية خارجة عن كيانك ولو أنها بطبيعة الحال تؤثر فيه إلى حد ما ، وصفاتك النفسية — الذكاء ، والغباء والـكرم والأثرة — هى حقائق روحية ، وهى كيانك ذاته ، والتفسير

الاقتصادى للتاريخ يعرّف المادة بصفاتها والإنسان بظروفه والصورة بما فى مؤخرتها ، فهو سخافة متحذلقة .

كارل ماركس : البيئة تصنع الإنسان .

مارى استيوارت : لقد كنت أظن أن أمه هى التى تقوم بذلك .

ڤولتير : متعاونة مع والده تعاوناً متقارباً .

كارل ماركس : أنا أجدّ فى الموضوع ، البيئة تصنع الإنسان .

ڤولتير : والإنسان يصنع البيئة .

جيتى : لنحاول تكوين قضية تجمع بين الفكرتين ، إن البيئة وأحوالها الاقتصادية قد تعدل من أخلاق الإنسان، إلى حد ما والإنسان بموجب هذا سليل زواجين ، زواج أبيه بأمه ، وزواج أخلاقه بمصيره، والأخلاق عند بعض الناس هى الذكر والمصير هو الأنثى، وعند آخرين الأخلاق هى الأنثى والمصير هو الذكر .

ڤولتير : (موجهاً الحديث إلى كارل ماركس) أسترعى نظرك إلى ذلك ، ومن أجل هذا كانت جماهير المدن سخيفة .

واشنجتن : ولو أنه يسوءنى كثيراً أن أسمعه يلزم أن أعترف بأن دمقراطيات المدن قد أخلفت ظنوننا .

جيتى : إنى أخشى أن يزيدهم الفلم تحللاً سواء كانت الرواية جيدة أو رديئة وذلك لأن المتبع فى المسرح أن يُعهد للعمل بموقف قد أعد بعناية وبراه الجمهور وهو يتقدم وينبعث تحت نظره ، والمسرح

يمكن أن يكون — بل هو فى الغالب — درساً فى الانتظار والترقب وهو جزء صالح كبير من فن الحياة ؛ أما الفلم وهو رواية فى التمثيل والحركة فإن النسبة فيها بين العمل المادى والفكر أو العمل الأخلاقى معكوسة ، فالفلم درس فى العنف .

مارى استيوارت : إنى أعجب أليس للاقتصار على اللونين الأسود والأبيض دون سائر الألوان تأثير آلى عنيف ؟

نابليون : وأى تأثير أقسى من جعل الفقير يرى كيف يعيش الغنى ؟

كارل ماركس : نعم . نعم .

نابليون : فى الأيام الخالية كان الفقراء لايرون منازل الأغنياء

مارى استيوارت : ولكن الخدم . . .

نابليون : نعم عدد قليل من الخدم والصناع والجنود ، ولكن جمهرة المزارعين وأهل المدن كانوا لا يرون بيوت الأغنياء ، وفى المناسبات العظيمة التى كان يلمع فيها الحرير ويتألق الجوهر كانوا لا يحضرون ، ولكن فى الوقت الحاضر ينتقل منظر الترف إلى أقصى القرى ويفتح عيون الدهشة والتعجب التى قد تصبح عيون الغضب والجشع والكراهة .

كارل ماركس : نعم ، نعم . وباستحقاق لذلك ، وقد تكهنت ذلك فى كتابى ، لأن صاحب رأس المال يعلم أنه يجر على نفسه

الهلاك بالإعلان عن إسرافه ، ولـكنه لا حيلة له فى ذلك ، ولا بد أن يجمع نقوداً ولو من جلده .

ڤولتير : أنت تستمتع بحرب الطبقة وتستطيبه !

كارل ماركس : لا شك أنى أسر لو أمكن تفاديه ، ولـكن ذلك غير ممكن ، فالرأسمالى مصنوع هكذا .

جيتى : أنت تجعلها غير ممكن تجنبها باعتقادك أنها كذلك ، ولـكن الحقيقة أنك قد وضعت أوروبا فى مأزق رهيب — وأمريكا كذلك — ولقد جئت بعقيدة جازمة وهى أن مساوئ النظام الرأسمالى لا يمكن أن تعالج وإنما يجب إزالتها بثورة اجتماعية ، وبذلك قد قضيت على أوروبا بالحرب الداخلية .

المنظر الخامس

كارل ماركس : الحرب ! الحرب ! فى أوروبا أسباب جمة للحرب ليست لها علاقة بى .

جيتى : صحيح ، ولـكن أوروبا كانت تسير متخبطة متعثرة فى طريق إزالتها ، أنظر إلى تجربة عصبة الأمم .

كارل ماركس : إخفاق ذريع .

جيتى : هل تنبذ الماركسية لأول إخفاق تصادفه ؟

كارل ماركس : لا ، لأنى أعتقد بنجاحها النهائى .

جيتى : نجاح العصبة النهائى أمر محقق .

نابليون : هـذا يدهشنى يادكتور جيتى لصدوره من رجل راجح العقل مثلك .

جيتى : دهشتك مما يدهشنى .

نابليون : الحضارة تقوم فى النهاية على القوة .

واشنجتن : لا يا سيدى ، إنها فى النهاية تقوم على الإيمان .

كارل ماركس : الرب ثانية !

واشنجتن : لا يا سيدى ، ولو أننى أجترئ على القول باننا إذا أطلنا الوقوف عند الفـكرة ، وفى الحقيقة عند أى فـكرة ، فلا معدى لنا عن الانتهاء إليه .

نابليون : ولـكن حينما تقول « إن الحضارة تقوم على الإيمان » يا جنرال ... ؟

واشنجتن : أقصد رابطة أدبية تجعل الناس يرتفعون فوق مصالحهم المباشرة الحيوانية ، وهل تظن أن جنودك كانوا يموتون من أجلك لأنك أرغمتهم على ذلك ؟

نابليون : قصدت أن جيشى كان سند حضارتى — وكان جيشى قوة .

واشنجتن : كان جيشك هو الشجاعة والإيمان بك وحب فرنسا .

نابليون : والمدافع والذخائر والمؤونة .

واشنجتن : مادة لا حياة فيها بغير الإيمان .

نابليون : أتريد إيماناً بلا مدافع ؟

واشنجتن : خير من مدافع بلا إيمان .

جيتى : (موجهاً الحديث إلى نابليون) قالمى يا سيدى . فكر فى معركة قالمى ، فقد تغلب الإيمان بلا مدافع على المدافع بلا إيمان ، وأنا معك أيها الرئيس واشنجتن ، ويسرنى أنك أجبت عن سؤال الإمبراطور ؛ ولو أنه كان موجهاً إلىّ ، فقد تعجب من إيمانى بعصبة الأمم وقد قصدت أن أجيبه بأننى أؤمن بعصبة الأمم لأننى أؤمن بأن أى مجتمع من الناس يلزم أن يشرع فى حكم نفسه متى وجد ، أو متى شعر بوجوده ، والمجتمع العالمى

موجود فى العصر الحاضر ، وقد بدأ يشعر بنفسه ، ولذا يلزم أن توجد حكومة عالمية .

ڤولتير : هـذا شىء جميل جداً ، ولـكن الولايات المتحدة الأمريكية التى بناها الرئيس واشنجتن على الإيمان قد رفضت الانضمام إلى ولايات العالم المتحدة التى بناها على الإيمان الرئيس ولسون ، فهل يستطيع الجنرال أن يفسر لى ذلك ؟

واشنجتن : ليس عندى فـكرة عن الموضوع .

ڤولتير : حقيقة يا جنرال .

واشنجتن : على الإطلاق ، كان يغلب على فـكرى أن نجاح الاتحاد بين الولايات الثلاث عشرة الذى جلب لمواطنى السلام والرخاء والقوة لا بد أن يجعل منهم أقوى المدافعين عن اتحاد العالم لأن هـذا ما اعتقدت أن العصبة ستكونه على الأقل فى جرثومتها ، ولست أدرى لماذا لا يتجهون بشعورهم هذا الاتجاه .

جيتى : لنستدع أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى .

ڤولتير : إنهم الآن فى دور انعقاد الجلسة ، ومن المؤكد أن الـكثيرين منهم يغطون فى النوم .

(يرفع جيتى يده فيحضر أحـد عضاء مجلس الشيوخ المجهولين) .

السناتور المجهول : (وهو يفرك عينيه) عضو الشيوخ

المحترم لا يستغرق وقتاً فى إدراك أهمية الأشياء ، فنصف ساعة من الحديث و ... ما هذا ؟ أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ وأى معرض هذا من معارض التاريخ ؟

وهل أنتم أشخاص حقيقيون أو صور من المجاز فى الحديث ؟

جيتى : أنت فى حلم أيها السناتور ، ورأسك معتمد على يدك ولا أحد يلاحظك ، وأمامك متسع من الوقت ، وزميلك يقرأ صفحات قلائل للسجلات ، وقد طلبنا إليك الحضور إلينا لأننا نريد أن نعرف لماذا لا تنضم أمريكا إلى عصبة الأمم .

السناتور المجهول : السبب فى ذلك ياسيدى واضح ، احتراماً لذكرى الرئيس واشنجتن العزيزة ، فكلماته قد وعتها القلوب وأصبحت دائرة على الألسنة (ويردد) « لأوروبا طائفة من المصالح لها المكان الأول ، وليس لها عندنا شأن أو لها بنا علاقة جد بعيدة ؛ ومن ثم فإن أوروبا لا مناص لها من أن تشغل بمجادلات أسبابها بعيدة عما يعنينا ، وليس من الحكمة إذاً أن نورط أنفسنا بروابط مصطنعة فى تقلبات سياستها العادية أو صلات صداقاتها ومصادمات عداواتها المألوفة »

وكذلك قوله :

« سياستنا الحقة هى أن نسير غير مرتبطين بأى اتفاقات دائمة مع أى جزء من أجزاء العالم الخارجى . . . »

(يتجه الجميع بأنظارهم إلى الجنرال واشنجتن)

واشنجتن : لم أقل ذلك ، ومتى صدر منى هذا الكلام يا سناتور ؟

السناتور المجهول : الرئيس واشنجتن فيما أعتقد ، إنك تبدو كصورتك النصفية ، ومع ذلك ليس الشبه كاملاً ، فهل أنت شخص الرئيس واشنجتن ؟

واشنجتن : نعم ياسيدى ، ما بقى حياً منه .

السناتور المجهول : يسرنى لقاؤك أيها الرئيس واشنجتن ، والكلمات التى سمعتها منذ لحظة مأخوذة من خطبة الوداع التى ألقيتها .

واشنجتن : ماهى هذه الخطبة ؟

السناتور المجهول : حسن أيها الرئيس ، الخطبة التى ألقيتها أنت . . . يا سيدى وبطبيعة الحال لا أتذكر ظروفها فى دقة وتفصيل ، ولكنها رسالتك للأمة حينما نويت أن لاتسعى للرياسة

واشنجتن : أسعى ؟ أنا لم أسع للرياسة قط ، ولكنى أدرك غرضك ولو أنك تتحدث بلغة لم آلفها .

السناتور المجهول : ولكن كلماتك لنا قد ألفناها ، ونحن نعى درسك بقلوبنا ، لا اشتباك ولا علاقات فى الشئون الأجنبية

واشنجتن : ولكن الابتعاد عن حوافر الجياد — أيها

السناتور — نصيحة مناسبة للجرو لا للفيل .

السناتور المجهول : يدور فى خاطرى أنك على حق أيها الرئيس، ولكننا لانريد أن تكون لنا علاقة بالأجانب .

واشنجتن : لا يمكن أن يكون لنا سياسة خارجية بدون أجانب

فولتير : فى الدنيا جماعات كثيرة من الأجانب أيها السناتور ، والواقع أنه ليس هناك سوى الأجانب ، وأنت نفسك ، أنت أجنبى أيها السناتور .

السناتور المجهول : لقد ولدت فى أمريكا ياسيدى

فولتير : أنت عندى أجنبى .

السناتور المجهول : أتسمح لى أن أسألك عن قوميتك يا سيدى ؟

فولتير : أنا فرنسى

السناتور المجهول (وقد استشاط غضباً) : يبدو عليك ذلك ، حسن ياسيدى الفرنسى ، حينما تدفعون ما عليكم من الديون نستأنف هذا الحديث

فولتير : أيها الشيخ أقسم لك بشرفى أنى قد أديت كل ماعلى من الديون وأستطيع أن أقول إنها كانت ديوناً باهظة .

السناتور المجهول : ولكن فرنسا لم تدفع ما عليها

واشنجتن : لم أستطع أن أتبين حتى الآن لماذا يا أبناء وطنى وأنتم رجال ولايات متحدة ، ترفضون الانضمام إلى عصبة الأمم

السناتور المجهول : لا تعرف يا سيدى هؤلاء الأوروبيين ، إن لهم براعة شيطانية ، ولقد لعبوا بممثلينا

واشنجتن (فى شىء من الجفاء) : لا أستطيع أن أعلى من قيمة وطنيتك إذا كنت تسىء الظن هكذا برجالنا

السناتور المجهول : لقد حضر أسلافى يا سيدى الرئيس على ظهر السفينة « ميفلور »

واشنجتن : أحسبنى أحد الأمريكيين القلائل الذين لم يحضر أسلافهم بها ، ولكن جماعة الرجال الذين صنعوا هذه البلاد معى من أمثال : فرانكلين وجفرسن وهملتن وماديسون وغيرهم كانوا كفاً لأى أوروبى ولا أعتقد أن البلاد قد هبط بها مستوى الذكاء فى إبان اتساع رقعتها وازدياد قوتها .

السناتور المجهول : أغلب الظن أنك على حق أيها الرئيس واشنجتن ، ولكن أزماننا أصعب من زمنك ، وهؤلاء الأوربيون وعصبتهم إنما يريدان أن نفض مشاحناتهما بامتشاق السيف من أجلهما .

واشنجتن : الآن أخذت أتبين السبب ، إذا كانت عصبة السلام ستكون ثوب تنكر لعصبة الحرب فأنا أقول لكم ابتعدوا عنها .

السناتور المجهول : وأنا دمقراطى ، والحقيقة أننى جمهورى ، وكنت دائماً كذلك ، وكان والدى جمهورياً ، وكذلك كان جدى.

ڤولتير : جمهورى وراثى ، أليس كذلك ؟

السناتور المجهول : بالضبط ، وأنتم أيها الأوربيون تحاولون دائماً أن تختاروا اللفظة الصحيحة ، وقد عنيت بقولى دمقراطى أننى أومن بالدمقراطية ، وإيمانى بالدمقراطية يجعلنى أجتوى هذا الأسلوب الذى تسمح به الدمقراطيات الأوربية للطغاة بأن ينتهكوا حرمة ميثاق العصبة ، أنظر إلى اليابان ، وانظر إلى إيطاليا .

واشنجتن : أنا الآن لست فاهماً ، فهل تريدون الابتعاد عنها أو لا ؟

السناتور المجهول : لن نرسل أبناء نا مرة أخرى ليحاربوا فى الخارج .

واشنجتن : ربما أوافقك على هذا ، ولكنى أرجوك أن تخبرنى من عليه أن يدفع اليابان عن منشوريا ؟

السناتور المجهول : لقد كان المفروض أن العصبة ستتولى ذلك.

واشنجتن : بدوننا .

السناتور المجهول : نحن لسنا من أعضائها .

واشنجتن : ولكننا كنا سنفيد من هذه الحركة باعتبارنا دمقراطية وقوة شرقية .

السناتور المجهول : أجترئ على القول بأننا كنا سنفيد من ذلك .

واشنجتن : لا تستشهد بكلامى فى تأييد هذه السياسة يا أيها السناتور ، لا شيء مما قلت يؤدى إلى هذا المعنى ، إنى أومن بالعدل والإنصاف .

جيتى : أيسمح لى بأن أقول كلمة ؟ لقد ولدت العصبة فى مهاد الحرب ، وقد جاءت والحرب فى رأسها ، وأنا شخصياً لا أعجب من أن الدعوة الداعية إلى التعاون المسلح وكانت هى هدفها — كانت لا تروق الأمريكيين ، وهذا حق ، ولكن لم يكن هناك ما يمنع أمريكا من تحويل عصبة الحرب إلى عصبة السلم بمجرد الانضمام إلى عصبة الأمم وإرغامها على قبول هذا التطور بما لها من مكانة وقوة وقدرة على التوجيه .

نابليون : ما هذا الذى تسميه عصبة للسلم ؟

جيتى : (موجهاً القول إلى واشنجتن) أنت يا سيدى ذكرت هذه الألفاظ فى مبتدأ الأمر .

واشنجتن : أجترئ على أن أقول يا دكتور جيتى إنك أقدر منى على فهم معناها ، وأنا أقصد بعصبة السلام آلة لتناول مسائل العالم فى سلام ، ومن المؤكد أننا إذا كنا قد وجدنا منذ مضى قرن ونصف قرن أن ولاياتنا الثلاث عشرة قد أصبحت حكومة تشمل مجموعة من الحكومات تحت سيطرتها المركزية فإن أمم العالم يلزم أن تكون الآن إلى حد ما حيث كنا نحن فى ذلك العصر ، ونحن لم نتحد لنكف عن محاربة بعضنا بعضاً وإنما لكى

نزيد بيننا مجهودات المادة والعقل المشتركة ، وأنا أسمى عصبة السلم الشيء الذى يعمل للعالم بأجمعه ما عملناه للاتحاد حينذاك .

السناتور المجهول : ولـكن لم يكن عندكم أجانب لتعالجوا أمرهم

واشنجتن : كان فرانكلين يعد أجنبياً فى فيلادلفيا لأنه جاء من بوستن .

السناتور المجهول : ولـكن ياسيدى الرئيس واشنجتن — أستحلفك بالله — ألست أمياً ؟ أما أنت كذلك ؟

واشنجتن : أمنيتى الأولى هى أن أرى السلام يرفرف فوق العالم وأن يجاهد ورثته كعصبة واحدة من الأخوة للعمل على سعادة البشر وأنا أحد أفراد جمهورية الإنسانية العظيمة فى مداها الواسع

السناتور المجهول : آه يارب النجدة ! النجدة !

(ويغشى عليه) .

المنظر السادس

كارل ماركس : إن عصبتكم للسلام أمر مستحسن للغاية ، ولكن ماذا تصنعون بهتلر وموسوليني ؟

ڤولتير : ليس لك أن تسأل هذا السؤال لأنهما غرس يدك وذريتك .

جيتي : نعم ، ولكن لماذا أنتج الدكتور ماركس هذا النتاج في إيطاليا وألمانيا ؟ يخطر ببالي أن النظام القائم حينما تتحداه الشيوعية يحاول أن يفكر في استفزاز عاطفة بشرية من القوة بحيث تستطيع أن تصرفها ، وقد وجدا ذلك في عاطفة القومية .

ماري استيوارت : ولكن القومية عاطفة موجودة في كل مكان

جيتي : أسلم بذلك ، ولكن كان من الطبيعي أن تكون أقوى في الأمم الجديدة مثل إيطاليا وألمانيا ، وهذا يوضح لنا أنهما كانا يجب أن يصبحا أقوى معاقل الفاشية .

ڤولتير : ومن ذلك نستخلص أن الأمم التي تشجع النزعة القومية ليس من حقها أن ترجم بالأحجار إيطاليا الفاشية أو ألمانيا النازية .

واشنجتن : الرجم بالأحجار لا يأتي بخير أبداً .

جيتي : أوافق المسيو ڤولتير وأعتقد أن ملاحظته على جانب

كبير من الأهمية ، لأن أعظم عقبة فى سبيل السلام العالمى اليوم ليست فى وجود فتيين أو ثلاثة فتيان أشرار لا يرجى صلاحهم وهم يفخرون بذلك وإنما هى فى ذلك الشر الذى لا يزال باقياً فى نفوس الفتيان الذين يدعون أنهم صالحون خيرون ، وما تدعى بالديمقراطيات المسالمة تتظاهر بحب السلام ولا تأخذ بأسبابه ، ومن الواضح الآن أن السلام الحقيق الدائم يقتضى نوعاً من الاشتراكية الدبلوماسية .

ماري استيوارت : أى لون من ألوان الطعام هذا ؟ لا بد أن مذاقه عجيب .

جيتى : أقصد أنه لا يمكن أن يكون هناك نظام أممى إجماعى لحماية ممتلكات القوميات الفردية ، ويلزم أن تدير أمورها بطريقة إجماعية كلية .

كارل ماركس : إنك اشتراكى يا دكتور جيتى

جيتى : لو كنت اشتراكياً مثلى لكان مستقبل العالم أقل حلوكة مما هو الآن ، وكأن أوروبا لم يكن عندها ما يكفى من المشكلات التى أوجدتها عقد الكبرياء القومية والتقاليد فجئت لتضيف إليها حرب تعصب .

كارل ماركس : لم أضف شيئاً ، لقد كانت هناك ، والشيوعية هى التطور الطبيعى للمجتمعات الرأسمالية ، وأنت

نفسك قدمت لى البرهان على ذلك ، لأنك تذكرنى أنها تستلزم فى كل مكان رد الفعل نفسه ، وهو الفاشية .

ڤولتير : لا شيوعية حقيقية فى خارج روسيا التى كانت دائماً شيوعية الروح ، والروسيون يحبون أن يعيشوا مجتمعى الشمل فى ظل أى نظام من النظم ، إقرأ رواياتهم ، فحوادثها تقع فى جو من الاختلاط والهرج والمرج لا يمكن وصفه ، وتدور أحاديث ليست لها أهمية مباشرة ولا يعرف لها ذيل من رأس وتستمر ساعات بغير انقطاع لأجل تناول الطعام أو بسبب النوم وتظل ليلاً ونهاراً وتمتد إلى اليوم التالى وتكون عادة فى غرفة نوم شاب فى مقتبل الشباب يموت بداء السل ولا يستطيع مسايرة الموت لأن المناقشة لم تؤذن بالانتهاء والقوم لا يريدون أن ينصرفوا ، فهذا وشقاء الروسيين العميق هما سبب الشيوعية فى البلاد الوحيدة التى عرفتها .

جيتى : الحقيقة أن المذاهب السياسية مثل أشعة الضوء التى تلون الأشياء حسب قابليتها الواقعية للون من الألوان ، ففى الليلة الليلاء تكون الطماطم والشلجم والكرنب جميعا مسودة اللون ، وتقع عليها أشعة الشمس فيصبح أحدها أحمر اللون والآخر أبيض والثالث أخضر اللون ، وكذلك الشيوعية ، ففى إسبانيا من المحتمل أن يكون معناها أنها رمز ليبدأ كل إنسان فى أن يستولى على ما يسعه الاستيلاء عليه من الأملاك العامة ، وفى

إنجلترا يكون معناها تعميم اتخاذ نظام التعاون العام ، وفى فرنسا يكون معناها فكرة مجردة هى أقصى الطرف الأيسر لخط مستقيم من الآراء الشائعة ، وفى ألمانيا يكون معناها الحكومة الاشتراكية المطلقة ، وفى أمريكا يكون معناها ديكتاتورية أساتذة الاقتصاد ، على حين أن الفاشية فى ألمانيا معناها لون من ألوان قصيدة النيبلنجن — إلياذة الألمان .

ماري أستيوارت : ولكنها فى غير موضعها

جيتى : وفى إيطاليا تأخذ صورة حصر مفاخر عصر القيصر أغسطس .

ڤولتير : فى كلتا الحالتين هروب من الواقع ، ففى الأولى إلى الأسطورة التيتونية وفى الثانية إلى تاريخ ملىء بالخرافات مثلها لأن مفاخر عصر أغسطس تستر تحت عباءتها الأرجوانية الشقاء والجريمة والقذارة .

جيتى : الفرار من الواقع هو من ضرورات حكومات الطغيان وههنا أحد الفاشيين وهو من أمثلة ذلك .

(يرفع جيتى يده ، فيمثل أمامهم شاب براق العينين تبدو عليه شراسة لا موجب لها)

الفاشى : أفى حلم أنا أم فى يقظة ؟ هذا لا يهم ، أليست إيطاليا الفاشية حلماً ؟ وأى حلم خير من إيطاليا يقظى ناشطة ؟ إن الدوتشى يأمرنا بأن نحارب لأجل إيطاليا وهكذا سنفعل ونقاوم

كل من — والويل له — يقف فى سبيل إرادتنا التى لا تنثنى ولا تقاوم ولا تتغير .

ماري استيوارت (موجهة الحديث إلى جيتى) : ألا ترى أن هذا البطل يسرف فى الاحتجاج والمعارضة

الفاشى : سيدة فى زى حفلة الرقص أو ربما كنت مغنية فى دار الأوبرا ، النساء فى إيطاليا يطعمن موسولينى ويلدن الأطفال فى أقصى سرعة ، وها أنذا مدرب أطفال يصوغ الأطفال ويشكلهم (ويأخذ وجهه صورة الشخص العجيب الذى تملكته فكرة واحدة وهو يصوغ بيده رأس طفل خيالى ويشكله) وهم فى غضاضة السن ونعومة الأظفار وأضغطهم وأكونهم وأكرب نفوسهم وأشوههم وأعنف بهم وأوسع ملامح وجوههم الجميلة جذباً وشداً حتى يبدو عليها التوتر والكراهة وأنفى عنهم تلك الأفكار المطمئنة الهادئة وأنمى الشوك بدلاً من الورد وأبتعث القسوة فى تلك العيون الحديثة العهد الشرقة بالضوء السماوى ، وها أنذا رجل مخلص شريف يشحذ هذه الأرواح الصغيرة على الحجر الصلد ، على قلبى الذى قد من الصخر . . . آه !

(ويختنق) . .

ماري استيوارت (وهى ترتجف وتوجه نظرة لوم وعتب إلى جيتى) : كيف ساغ لك . . . ؟

جيتى : ولـكن يا بنيتى أنا لم آمره أن يمثل لنا ، وإنما سمحت لك أن تستمعى إلى أحلامه وتشاهدى المادة التى يصنع منها المجد القوى ، إستمعى الآن إلى أحد النازيين .

(ويرفع جيتى يده ، فيظهر بينهم نازى متحمس متوتر الأعصاب شديد الاهتياج) .

النازى : ليعش هتلر ! إنها جماعة غير عادية (ويحدج ڤولتير بنظره) هـذا الخرطوم العجيب . . . . وهذه الابتسامة المنذرة الـكئيبة وهـذا الأنف الطويل . من المؤكد يهودى (ويوجه الحديث إلى ڤولتير متهجماً) ليعش هتلر !

ڤولتير : لا تجهد رئتيك أيها الشاب ، لقد سمعنا كلنا تحيتك . .

النازى : قلها أنت .

ڤولتير : لا تخش شيئاً .

النازى : أنت يهودى قذر !

ڤولتير : لا هذا ولا ذاك .

النازى : لا هذا ولا ذاك ماذا ؟

ڤولتير : لست قذراً ولست يهودياً ، تكلم باحترام أكثر من هذا مع صديق قديم لفردريك الأكبر !

النازى : لقد كان هو الرائد لهتلر ، وما اسمك ؟

ڤولتير : ڤولتير .

النازى : لم أسمع به من قبل .

مارى استيوارت : هو فى نفس قالب نجمة الفلم الصغيرة التى رأيناها .

النازى : (موجهاً الحديث إلى مارى استيوارت) أى سلوك فجر ودعارة تسلكه امرأة ! ما الذى تصنعينه هنا محفوفة بالرجال وأنت فى حفل زينتك ؟ وهـذا الجيد الضاحى ، إذهبى واحملى أطفالاً لوطنك ، والفيهرر . . . .

مارى استيوارت (فى رقة ولين) كم عدد أتباعه ؟

النازى : (فى عظمة وتأبّه) ستون مليونا من الألمان ، جميعهم أعيد ميلادهم على يديه .

كارل ماركس : ومستعدون للموت من أجله ، إه ؟

النازى : (دون أن يخطئ) أيها اليهودى القذر ! (وفجأة يشخص إلى عينى جيتى وقد اتجهتا إليه كنجمين يشعان هدوءاً) ياسيدى ، ماذا فعلت ؟ ماذا . . . ولماذا ترنو إلىّ هكذا ؟ لقد تبعت بأمانة أوامر الحزب وقد كنت ألمانياً مخلصاً ... لا ، إنك على حق ، وأعلم أن هذا باطل ، وأعلم أن خير ما فى روحى الألمانية يثور . . . ولكن ماذا تصنع ؟ والآن بطبيعة الحال أستطيع أن أعبر عما يدور بفكرى لأننى نائم ولكنى لا أستطيع ذلك فى اليقظة يا سيدى ، لا أستطيع . . . ألم أقل لك ذلك ؟ لا أستطيع ، وإذا ظل الإنسان يحتبس أفكاره اليوم تلو اليوم

ويقبرها العام بعد العام ولا يسمح لها أن ترى شمس الله ولا أن تتنفس هواء الله فإن هذه الأفكار (وهو يجهش باكياً) تتعفن ياسيدى ونحن كذلك يصيبنا العفن معها ، نتعفن ونتساقط بدداً (ويختفى) .

مارى استيوارت : أوه يا أستاذ ، إنه غير محتمل ! أيمكن أن تحدث مثل هذه الأشياء ؟

جيتى : لقد حدث أمثالها فى جميع العصور ، ولكن لم يحدث قط مثل ما حدث فى هذه الأيام بعد بذل مجهود كبير لانتزاع جذورها من سطح الأرض ، إستمع الآن إلى شيوعى من اتحاد السوفيت .

(باستعمال القوة نفسها يستحضر جيتى أحد الشيوعيين من رقاده) .

الشيوعى : هذه الشخصيات اللامعة ، ليس هذا عرضاً مسرحياً ، إنه شىء خارق للعادة ، إنى أعلم أننى نائم ولكن حتى فى النوم فإن الأجمل بى أن أراقب كلماتى وأفكارى ، فالأوجبى يستطيعون أن يعرفوا الأفكار التى تغشانى فى النوم كما يتجسسون على محادثاتى التليفونية ، وياليتنى كنت أدرى ما الذى أستطيع قوله دون أن أرتكب ذنباً ، ولقد ظللت أتملق استالين سنوات وأنعته بالعبقرى المخلص وهو الآن لا يريد ذلك ويستهجنه والإقلاع عن هذه العادة يقتضينى بعض الوقت ، وماذا عن السياسة ؟ فهل

مازلنا شيوعيين ؟ أو نحن اشتراكيون فحسب ؟ وهل نحن نحب الدمقراطية أو نحن نهزأ بها كما كنا نفعل فى أيام ليتين ؟

كارل ماركس : أنت بطبيعة الحال شيوعى .

الشيوعى : مهما يكن من الأمر من أنت ؟ وجهك معروف عندى ، وهو يتلو وجه ستالين ولينين .. أوه ، أنت كارل ماركس ، هذا بطبيعة الحال يدل على أننى فى حلم .

كارل ماركس : أنا كارل ماركس ، إنى فخور بكم يا أهل روسيا ، فأخيراً بفضلكم سنرى جنة الشيوعية على الأرض

الشيوعى : الجنة ؟ كلمة دينية ، أى فلتة عجيبة منك أيها الرفيق ! يظهر أنك قد التبس عليك الأمر قليلاً .

كارل ماركس : أقصد حالة ليس بها طبقات .

الشيوعى : الآن دعنى أضع الأمر فى نصابه ، فأنت ترى أيها الرفيق استالين بعبقريته التى لا نظير لها . . . عليها اللعنة ! أمح ذلك ، أعنى أننى لا أقول إنه غير عبقرى ، فالحقيقة أن فيه الكثير من العبقرية ولكنه لا يريد أن يقال ذلك فانظر ؟ أقصد بتواضعه الذى لا يبارى ، ويهجس ببالى أن هذا مدح كذلك . . . ومهما يكن فإن استالين يرى أن دولة ليس بها طبقات ليس معناها دولة بلا طبقة أو بلا مساواة فى الجزاء ، وهكذا كما ترى حقوق التملك

كارل ماركس : حقوق التملك ؟ ماذا عندكم لتشغلوا بالكم بحقوق الامتلاك ؟

الشيوعى : حسن ، لست أدرى ، مهما يكن (يستولى عليه فجأة الفزع) لماذا توجه إلىّ هذه الأسئلة ؟ أيمكن أنك بأى مصادفة من المصادفات ...؟ وهل هذه اللحية حقاً لحيتك ؟ وهل أنت حقيقة كارل ماركس أو أحد رجال الأوجبى متنكراً ؟ لأجل خاطر السماء . . . أقصد لأجل خاطر الله ... أقصد لأجل خاطر استالين ، أنت لست . . .

جيتى : هدئ روعك ، أنت بين جماعة من الأصدقاء ، وأنت فى حلم ولسنا من الأرض .

الشيوعى : ألستم منها ؟ إذاً أنا كذلك لست من الأرض ، أنا حينئذ ميت (يوجه الحديث إلى جيتى) أوه ياسيدى يبدو عليك أنك عظيم نبيل الروح ، فلا ترجعنى ، لو كانت عندك فكرة عن هذا الجحيم ! كل لحظة من لحظات حياتك قد دبر أمرها لك ، وعواطفك تملى عليك ، والحياة طعمها كطعم الورق أو طعام الأطفال ، فياسيدى لأجل خاطر السماء لا تردنى إلى الحياة ، فالسماء والطهر والجحيم . . . لا أبالى ولكن لاترجعنى لا ترجعنى . . .

(يختنق) .

مارى استيوارت : ما أقل اكتراثك بحزنه يا أستاذ !

جيتى : بل ما أشد عجزى ! أنا لا أستطيع أن أغير ، ويلزم أن يعود إلى قانونه .

ماري استيوارت : لا أستطيع التغلب على هدوء نفسك .

جيتي : يلزم أن ترتفي إليه وستبلغينه ، ولكل إنسان قانون ، ولكل أمة قانونها ، وقد رأيت أمثلة تسترعى النظر في هذه الحالات الثلاث ، فالإيطالي غير سعيد في داخل نفسه وتكشف له عن ذلك يقظة ضميره ، والألماني تبين له ما يعاني من شقاء عينا ألمانيا وقد توهم أنهما يطالعانه من عيني ، أي في عيني رجل آخر قد جسم فيه السلطة ، والروسي عضو في روح اجتماعي يتعلق باستالين تعلقاً يائساً حتى يجد له مهرباً .

نابليون : عجيب أنكم جميعا ترفضون أن تروا الفاشية الإنجليزية .

كارل ماركس : أتقصد هذا المدعو موزلي ؟ إنه خائن لا يقام له وزن .

نابليون : أنا لا أفكر في موزلي ، وإذا كانت الفاشية هي القومية ففي أي مكان ترون الفاشية شديدة الارتباط بروح الأمة أكثر مما في إنجلترا ؟

ڤولتير : الفاشية لا توائم حرية التفكير وإنجلترا هي البلاد التي يجد فيها الفكر أكبر نصيب من الحرية .

نابليون : الفكر هو عدو الفاشية حينما يلبس الناس قمصانهم الملونة فوق جلدهم ، ولكن حينما يلبسونها تحتها كما يفعل البريطانيون لا تستهدف حرية الفكر للخطر ، والفكر الإنجليزي لا يحيد عن الأرثوذكسية القومية .

جيتى : الحق أنها مجتمع عضوى ، ومن ثم قوته ، وليس القميص ياسيدى هو الذى يهم وإنما الهيكل العظمى ، وبعض الناس مثل الحيوانات اللبونة هيكلها العظمى من الداخل وغيرهم مثل السلاحف هيكلها العظمى من الخارج .

واشنجتن : أنت إذاً يادكتور جيتى تؤمن بالأخلاق القومية

جيتى : أومن بها ، فهى حقيقة طبيعية .

واشنجتن : إذاً تؤمن بالأمم ؟

جيتى : كذلك هى حقيقة طبيعية كما توحى كلمة أمة نفسها ولكن لاحظ يا سيدى أننى حين أعتقد بالأمم ويقتضى ذلك أن أعتقد بالدول فإننى أعتقد أن الدول شر لا بد منه ويجب أن نقلل منها جهد الطاقة .

كارل ماركس : بدون الدولة يأكل القرش السمك الصغير .

جيتى : ومن ثم فائدتها الهامة .

كارل ماركس . ولكن يجب أن يسيطر عليها العمال وبغير ذلك تكون الدولة دائماً دولة طبقة إلا إذا كانت دولة ليس بها طبقات .

مارى استيوارت : يبدو لى ذلك كأنه ضرب من التناقض فى الحديث .

ڤولتير : نظرية كاثوليكية محضة ياسيدتى ، فالدولة يجب أن تهيمن عليها الكنيسة ، والشيوعى هو الجزويتى الحديث ، فالغاية

تبرر الواسطة سواء كانت العقيدة أو العالمية أو الخضوع التام والاستسلام المطلق ، ولا يحتمل أى دين آخر ، وأخيراً ضع عينك على الأملاك الخاصة ، هذه صورة الجزويتى الكامل أو الشيوعى إذا شئت .

كارل ماركس : المغالطات لا توقف الثورات .

واشنجتن : ولكنك لا تريد ثورة — إذا كنت تبلغ أغراضك بدونها ، فهل تريد الثورة ؟

كارل ماركس : لا أستطيع ، وهذه هى الصعوبة .

مارى استوارت : (فى لين ورقة) ألا تريد أن تحاول !

جيتى : قد يكون أوان ذلك قد فات ، لست أدرى .

واشنجتن : لماذا ؟ لقد ظننتك المتفائل فى جماعتنا .

جيتى : لقد كانت أمالى معقودة بألمانيا وإيطاليا ، وهما أمتان عظيمتان ، بل هما من العظمة بحيث إنه حينما كانت إنجلترا وفرنسا وإسبانيا تتلقى دروسها الأولية من أقوى الحكومات الثلاث التى عرفتها الدنيا كانت ألمانيا وإيطاليا تفيضان الحضارة دون أن يكون لهما دولة تتحدث عنهما وتمثلهما ، ولقد استأثرت الإمبراطورية الرومانية المقدسة بسلطة الدولة فى ألمانيا ، وفى إيطاليا استأثر بها الفاتيكان ؛ وفى كلتيهما تولت ذلك فرنسا وإسبانيا ، وحينما كانت أغلب ثقافة إنجلترا وفرنسا وإسبانيا مركزة فى لندن وباريز ومدريد كانت ألمانيا وإيطاليا يرسلان الثقافة فى أى مكان وبكل مكان ، فكل

مدينة كانت عاصمة وكل دويلة كانت مركزاً ، وكان يمكن أن نشيد بناء أوروبا على أساس هاتين الأمتين المجيدتين اللتين لا دولة لهما ، ولكنهما الآن ملك للدولة وقد خنقت الدولة أنفاسهما .

نابليون : علل أوروبا لا يمكن إبراؤها إلا بدولة أوربية ، ولن تعرف أوروبا السلام إلا إذا سمت فوق الوطنية ، أنظر إلى أى خريطة ، فحورا أوروبا السياسيان هما محور برلين — روما ، ومحور باريز — القسطنطينية ، وهما يتقاطعان فى ڤينا ، فڤينا هى واشنجتن أوروبا ، والنمسا هى نظير مقاطعة كولومبيا بها .

واشنجتن : وماذا عن إنجلترا وروسيا ؟

نابليون : لندن وموسكوها كفتا الميزان فى الطرفين ، وأوروبا فى وسط العالم ، ومقاييس السرعة الحديثة جعلت الأطلنطى بحراً داخلياً ، ونوعاً من البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الخارجى الوحيد اليوم هو الباسفيكى ، ولكنك لا تستطيع أن تتصور دنيا متحدة بدون أوروبا متحدة ، والعمل من الضخامة بمكان ويحتاج إلى القائد والزعيم — القائد والزعيم الحق .

جيتى : قد يأتى ، فى بعض الأوقات يخطر ببالى أن البشرية على وشك انقلاب يجعل عقلها أقوى وأقدر على القيام بأعباء العصر الحاضر ، والرجال الذين قادوا الحرب الأخيرة — على الأقل فى المظهر — كانوا جميعاً أقل من مستوى الحوادث التى واجهتهم بالرغم من أن بعضهم كان ضخماً كبيراً ، فجيوش مكونة

من ملايين الجنود في جبهات تمتد آلاف الأميال وأساطيل تنطلق إلى ما وراء أفقها المنظور وتسير بسرعة تطوى أكبر خريطة فى زمن أقل مما تستغرق هيئة أركان الحرب فى تعيين موقعها ، وذخائر تفوق خيال أى إنسان . . . والسلام الذى تلا ذلك — إذا كان حقيقة سلاماً — لم يكن أقل من ذلك إثارة للحيرة والارتباك ، ومشكلات العالم تستلزم جيلاً من السياسيين قد يكونون الآن فى دور التكوين .

مارى استيوارت : ربما أرى علامة ترهص بمجيئه ، فهل لاحظت كيف يعرض النساء عن الرجال المضبورين الأقوياء الذين كانوا معبوديهن فى الماضى ويقبلن على الرجال ذوى القوة العقلية والأخلاق .

جيتى : إرادة المرأة هى إرادة الله كما يقول الفرنسيون .

ڤولتير : إلا إذا كان هناك ثعابين وتفاح .

جيتى : هذا حدث منذ عهد عهيد حينما كان الرب صغير السن غير مجرب كما كان يمكن أن تقول ، ولكن النساء فى العصر الحاضر وهن أقرب اتصالاً بحاجات البشرية ربما كن يتحسسن طريقهن إلى إنسانية أعظم وأكثر كفاية ، لأن هذا هو مادة مشكلاتنا جميعها ، ومع الاحترام اللائق لنبالة غرض الدكتور ماركس أرجو أن يسامحنى إذا قلت إن مدرسته قد ارتكبت خطأً كبيراً فى تأكيدها أهمية مسألة قانونية محضة مثل مسألة الملكية ،

والقوة مادة روحية وليست صورة قانونية ، ولو أنك غيرت العلاقات القانونية كلها لوجدت أنك لا يزال عليك بعد ذلك أن تتناول الشر الرئيسي فى المجتمع ، وفى الحقيقة الشر الوحيد — وهو نزوع الأقوياء إلى تحويل قوتهم لمنافعهم الخاصة ، وهذا هو المعنى الحقيقى للفساد .

واشنجتن : فى الجماعات القومية رد على ذلك واضح ، فالدين هو أساس الآداب ، والآداب هى أساس الرعوية .

كارل ماركس : هذا تصور كتصور العصور الوسطى ياسيدى

واشنجتن : قد يكون كذلك ، ولكنى فى هذه الحالة لا أتكهن بحياة طويلة لمجتمعكم الحديث .

ڤولتير : الدين قد بليت جدته أيها الرئيس واشنجتن .

واشنجتن : ربما فى بلادك ، ولكنه لم يكن هناك قوياً بوجه خاص .

جيتى : أخشى أن يكون الدين لم يصبح عاملاً قوياً فى بناء أى مجتمع قوى حتى ولا فى أمريكا ، وخطابك الوداعى — كما يسميه مواطنوك — لم يعد من الممكن تطبيقه والأخذ به لا فى هذا ولا فى نصيحتك بتجنب الاشتباكات والتدخلات ، وإذا كانت ذاكرتى لم تخنى فقد قلت لمواطنيك « إذا غضضنا الطرف عن ظلال الاختلافات اليسيرة فإن ديانتكم وعاداتكم وتقاليدكم ومبادئكم السياسية واحدة » وهذا القول أقل انطباقاً على الدين مهما تكن

مطابقته للحق فى سائر ماذكرت ، لأنه بأمريكا على الأقل ثلاث ديانات جميعها لها شأن ، البرتستانتية ، وهى منقسمة إلى شيع كثيرة وفرق متعددة ، والكاثوليكية واليهودية .

ڤولتير : والماركسية وهى الدين الرابع .

مارى استيوارت : ولكن إذا كان ما تريدونه هو حكومة عالمية تشمل مختلف الأمم أليست كثرة الأديان هذه من المزايا التى تعين على تحقيق ذلك ؟

جيتى : هذا يبدو للنظرة الأولى ، ولكن الدين يؤكد الوحدة الإنسانية فى جوهره ولبابه على حين يبرز الاختلافات الإنسانية فى التعبير عن نفسه ، والعقائد العديدة ليست سوى جعل الدافع العام العتيد نحو الوحدة الذى يحيا فى الروح الإنسانية ملائماً للثقافة المحلية والتقاليد والأخلاق ، فهى أمم روحية مثل اللغات ، وهى تزيد المشكلة تعقداً بدلاً من أن تساعد على حلها .

واشنجتن : ربما كنت على حق فى تفكيرك ، إننا محتاجون إلى شىء آخر ، ومهما يكن فإن يجب أن يكون أعمق من مجرد الفكر .

جيتى : هذا من المؤكد ، وإنى أراه فى الشعور بالوحدة العضوية للجماعات الإنسانية ، لأن حكومة مجموعة الأمم تكون سليمة حينما تكون الطاقة التى تستمدها من أمنا الأرض وأبينا السماء متجهة على الدوام اتجاهاً تصاعدياً بحيث يعطى كل عضو للكل فى صورة

أكثر تراكباً تلك الطاقة التى يتلقاها فى صورة أدنى ،" وحينما ينحرف الفيض فى أى مرحلة من مراحله لمصلحة المتلقى يتفشى الفساد الذى يسقم العضوى الحى جميعه بما فى ذلك بطبيعة الحال العضو المقصر .

ماري استيوارت : أوه يا أستاذي أنت تحز فى أعماق قلبي ! وأنا أرى الآن — متأخرة — موضع خطأى ، والبلاط الفرنسى الذى نشأت فيه ملكة وأنا فى دور الطفولة لم يتحدث إلى كحديثك ، وقد تحققت أنه كان فاسداً من وجوه عدة ، ولكنه كان فاسداً بوجه خاص فى الناحية التى علمتنى أن أنظر إليها ، إنى لم أر ذلك إلا اليوم .

كارل ماركس : آراؤك متأثرة بآراء الطبقة التى نشأت بين ظهرانيها ..

جيتى : لا ياسيدى ، لتسامح الملكة صراحتى ، لقد كانت خائنة لطبقتها ، فهى لم تتعلم ولم تلف ناصحاً فعاشت لنفسها لا للأمانة المقدسة التى عهد بها إليها .

كارل ماركس : الملوك لا يفعلون سوى ذلك .

جيتى : الملوك كائنات بشرية ، بعضها صالح وبعضها طالح .

ڤولتير : وبعضها شر من ذلك .

جيتى : ولكن من التعصب أن تتصور أن الملوك كلهم

يخونون الأمانة كما تتصور أن سكرتيرى الاتحادات التجارية جميعهم يهربون بأموالها .

واشنجتن : لما كان ذلك كذلك — وأنا أوافقك يا دكتور جيتى — فإنه يبدو لى أن مسألة الطبقات أكثر تعقيداً مما ذكر المسيو ڤولتير أمامكم قبل حضورى إليكم واجتماعى بكم ، لأنه من الواضح أن الزمن عنصر هام فى تكوين الطبقة .

نابليون : قد ترون حرجاً فى الاستشهاد بى لتعزيز ذلك لأننى وصلت إلى الملك بمجهودى ، ولكننى أوافقكم على أن الزعامة فى المجتمع ليست مسألة مجرد استعداد فطرى وإنما مسألة تنشئة كذلك . والزعيم الفذ ينبغ من أى طبقة وقد يجىء ارتجالاً ، ولكن الطبقة التى تتولى الزعامة يجب أن يثقفها الزمن والعادة والتقاليد .

كارل ماركس : أو بألفاظ أخرى المصلحة والأجرة والربح .

ڤولتير : إخلع نظارتك الاقتصادية !

جيتى : من الواضح أن الطبقات مثل أنسجة الجسم يلزم أن تعطى وقتاً لتباشر اختصاصها ، ولهذا السبب فإننى مع موافقتى على ما قاله الإمبراطور عن ضرورة إخفاق غير الكفء إخفاقاً سريعاً وقبولى لما قاله المسيو ڤولتير عن طبيعة الطبقات الشكلية ، أقول إنى مع هذه الموافقة أعتقد أن حركة النوع

الإنسانى لا يلزم أن تـكون سريعة علواً أو انخفاضاً ، ويلزم أن تـكون هناك دورة ولـكن على أن لا تـكون من السرعة بحيث أن الطبقة نفسها تتأثر ولا تستطيع أن تؤكد أساليبها .

كارل ماركس : كيف إذاً تستطيع أن تتجنب تحول الطبقة إلى طائفة ، ذلك التحول الذى وصفه المسيو فولتير .

جيتى : يمكن أن يتجنب ذلك بفضل الطبقة نفسها ، فإن عليها أن تراعى النفع المرجو منها ولا تحتمل الفضـوليين ولا الوصوليين الداورين .

كارل ماركس : أشكرك من أجل لا شىء

جيتى : هـذا كل ما هنالك ، وأنت نفسك ليس عندك ما تقدمه أكثر من هذا ، وأنتم فى حاجة إلى زعماء فى نظامكم ، وإذا كانت لهم فضيلة خاصة بهم فإنهم سيكفونك ، وإذا لم يكن لهم ..

كارل ماركس : نعزلهم .

جيتى : من هم هؤلاء الذين تتكلم عن لسانهم ؟

فولتير : الصماليك .

كارل ماركس : لقد أجابك ، وقد انقلب المسـيو فولتير اشتراكياً .

جيتى : ولـكن إذا كان الصماليك مجردين من الفضيلة ؟

ڤولتير : هذا تجديف !

جيتى : لا يستطيع الإنسان الوثوب من إهابه ، ولا شىء ينقذ الجماعات البشرية من التفكك والانحلال سوى الشعور بالوحدة العضوية ، وأنا أحلم باليوم الذى يحقق فيه النوع البشرى والأمم والأفراد الوحدة الإنسانية ، وهذا هو الذى يصونهم من الفساد ، وأحلم باليوم الذى يحول فيه الأفراد إلى الأمة فى صورة من الخدمات أكثر تعقيداً الطاقة التى يتلقونها من القيام بأودهم وتثقيفهم ، وأحلم باليوم الذى تتلقى فيه الأمم هذه الخدمات من أفرادها وتحولها فى صورة الثقافة الأكثر تعقيداً إلى الحكومة العالمية الشاملة للأمم ، وحينذاك ستكون الدنيا قد حققت أروع المثل العليا الإنسانية ، الحرية والنظام .

المنظر السابع

ماري استيوارت : أرجوك أن تخبرني كيف يجيء ذلك ؟

جيتي : ربما بواسطة بعض الكشوف التي يسمح للناس بالاهتداء إليها ، وسيطرة الإنسان المتزايدة على قوى الأرض جملته شديد الفردية ، وهناك بعض الاختراعات مثل السينما ستزيد هذا الشر تفاقماً ، ولكن كشوفاً أخرى ستعادلها .

ماري استيوارت : أي كشوف ؟ أنا متلهفة على معرفة ذلك ، وأنت ترى أن هذا يشبه القصة ، فما الذي يحدث بعد ذلك ؟

جيتي : أملي معقود بالراديو .

ماري استيوارت : الراديو ؟ يا أستاذي العزيز ، أنا لا أستطيع فهمك ، والحقيقة أن شيئاً واحداً يحيرني دائما قبل الألفاظ : لماذا سمح الرب للناس بأن يغزوا أثيره الهادئ ويشوبوا سكونه بهذا الغناء الصاخب السيئ السمعة وذاك الغناء الخفيض الصوت ؟

ڤولتير : هناك شيء شر من الموسيقى الصاخبة والغناء الخفيض ، هناك الإعلان بمختلف الألوان .

واشنجتن : الغناء الصاخب والغناء الخفيض والإعلان لا يسمعها غير من يستمع إليها من الرجال ، ولكن الأثير يظل هادئاً هدوء الزمن الذي يحمل في تؤدة وسكون جرائم الناس وسخافاتهم ...

جيتى : ومع ذلك فإنه لا بد أن يكون هناك رد على سؤالك ، ولماذا ترك الأثير هدفاً للغزو الآن لا قبل ذلك ولا بعده ؟

ڤولتير : لست أدعى أنى موضع ثقة الرب مثل الدكتور جيتى وأعترف بأنى لا أفهم أساليبه ، ولهذا السبب لست متأكداً من أن هناك سبباً لما يحدث من الأشياء .

واشنجتن : لا بد ن يكون هناك سبب

مارى استيوات : هل تحدث الأشياء كلها وفقاً لسبب من الأسباب ؟ لا أستطيع أن أتخيل هذا .

كارل ماركس : ليست الدنيا مستشفى للمجاذيب .

ڤولتير : لا بأس ، أنا لا أدرى ، إذا أصبح الأمر لأتباعك أو لمقلدى الإمبراطور ...

جيتى : إنى واثق من أن المسيو ڤولتير لو وافق برهة من الزمن على إزالة قناع الفكاهة الذى يجيد لبسه لا تفق معى فى الرأى ، وهو على حق فى اعتقاده أنه قد لا يكون هناك سبب للأشياء التى تحدث ، وهو يقصد بذلك أن الأشياء قد لا يكون لها سبب إنسانى أو سبب يفهمه الإنسان .

ڤولتير : أسلم بذلك .

جيتى : ولكن قد يكون هناك سبب إلهى .

كارل ماركس : الرب ثانية !

ڤولتير : (موجهاً الحديث إلى كارل ماركس) لا بأس ،

هو نوع من الرأسمالى الأعلى ، ولـكنه مستعد للمساومة فى المبايعة الـكلية .

جيتى: والآن لماذا لا نحاول أن نفـكر فى هذا السبب ؟

ڤولتير : هذا شاق جداً يا سيدى ! أنظر أشد هذه المعضلات استعصاءً على الفـكر ، وهى أنه يجب أن يكون فى الدنيـا كثيرون يقترفون الشر بحسن نية وخالص طوية .

مارى استيوارت : ما الذى تعنيه ؟

ڤولتير : حسن ياسيدتى ، الناس الذين يقصـدون خيراً ويصنعون شراً — سافونارولا وتوركادا وكالڤن ونـكس وماركس وحتى ...

مارى استيوارت : نعم ؟

ڤولتير : أتسمحين لى بالقول ؟

مارى استيوارت : بطبيعة الحال

ڤولتير : وحتى أنت نفسك ياسيدتى ، وأنت شخصية جذابة ساحرة ، ولـكنك لوثت حياتك وتورطت تورطاً مسـتهجناً وأفسدت حياة الـكثيرين من الناس .

مارى استيوارت : وما ذا تعرف عن ذلك ؟ وأنتم هنا رجال كلـكم أذهان فوق سيقاق ترون الحياة بنواظر سليمة ولـكنكم لا تكادون تشعرون بها على الإطلاق ، وها أنتم ههنا تندفعون إلى الأمام بأقصى ما فى وسعكم من السرعة وتقيمون منصاتكم العقلية

من الخشب ، ذلك الخشب الميت وقد سويت أطرافه وصقلت جوانبه بفولاذ منطقكم القاتل المميت ، ولـكن الحياة تضحك منكم وأعيد على مسامعكم أنها تضحك منكم (وتتجه إلى ڤولتير) كيف تعرف هل أفسدت حياتى وأنت الذى لا يعرف شيئاً عن حياتى ولا يعرف إلا القليل عن الحياة على الإطلاق ؟ نعم إنى واثقة من أننى كنت عنيدة شاذة جامحة .

ولـكنى قامرت مقامرة غالية ومن يبالى أخسرت أم ربحت إذا كنت أنا لا أبالى ؟ إن الحياة كذلك مقامر ولا يخشى الرهانات الضخمة ، ولهذا السبب حينما سمعتكم وأنتم تراجعون حساباتكم بعناية ودقة وتوزعون ثروتكم مثل اللصوص الشرفاء لأن هذه هى حقيقتكم (وتتجه إلى جيبى) — سامحنى يا أستاذى فلست أستطيع كتمانها أكثر من ذلك ويلزم أن تخرج وتبرز — وحينما سمعتكم تتناقشون فى الطرق المختلفة لتنظم « إمساك الدفاتر » ، وهو محصل ما دار بينكم ، قلت لنفسى أوه أيها الرجال وأنتم الصغار الضئال أتظنون الحياة كذلك ؟ لا . الحياة قمار وليست تجارة ، قمار مع الحياة نفسها ، وليس مع الرجال الآخرين ، وكل ما عندكم من الجمال والحق والقيمة فأنتم مدينـون به للمقامرين الـكبار فى الأيام السالفة ، ولمـاذا يجىء إنسان ويضع حياته بين يديه ويقذف بها إلى التيار الجارى الرائع ، وحول هذا الرجل أو هذه المرأة كانت حياة الـكائنات الإنسانية الأخرى حتى ذلك الحين شاحبة كابية

فتأخذ بعد ذلك ألوانها فى الالتماع والتوهج وتتناسق ألحانها وتسمو وتفيض بالابتهاج والمرح وتحفل بالمعانى والدلالات ، وهذه الأشجار البشرية وكانت حتى حينئذ ملتصقة الجذور بالأرض تتحول بعد ذلك إلى نمور وأسود أو نسور رائعة تحلق فى السموات العلى ؛ وقد قلت يا أستاذى العزيز « الحرية فى النظام » ولكن دبر الأمر بحيث يكون للحرية اليد الطولى والسهم الأوفر لأن الحرية خالقة والنظام يحفظ الأشياء فحسب ؛ هذا الشيطان البائس شأنه أن يحفظ كل شىء ، الأشياء الجديرة بالحفظ والإبقاء عليها والأشياء التى يحسن تحطيمها والقضاء عليها ، فهو يستبقى كل شىء مثل ربة المنزل الحمقاء ، وهو يحصر الحياة فى مثل حلقة من الفولاذ ، ولكن الحرية ، حرية الأرواح القوية تشق الحلقة الفولاذية ولا تمسك عن دفع حدود الحياة إلى الأمام دائماً .

نابليون : أنت ياسيدتى جديرة بالتاجين اللذين كانا لك ، وأنا مسرور لأنى سمعت مثل هذا الدفاع القوى الحار عن الحرية ، فهى حظية كل إنسان ، ولكنها لا تثمر إلا مع القوى .

ڤولتير : أى حليف باهر أنت يا سيدتى ؟ ولو أنك قد لاتقصدين ؟ وأين أجد مثلاً أحسن لطرق الرب المحيرة من ذلك الأسلوب المسرف لترقية أحوال البشر ودفعها إلى الأمام ؟ إنها الحرية ، ما فى ذلك شك ، ولكن فى أى شىء تختلف عن الفوضى ؟

جيتى : إرتفع إلى مستوى أسمى إذا استطعت ، مستوى أسمى من النظام والحرية ، وسترى هناك أن هـذين المبدأين اللذين ظننتهما متناقضين هما فى الحقيقة حليفان متعاونان ، فالملكة على حق حينما ترى أن الحرية — حرية الأرواح القوية — هى الدافع إلى الكشف ، وأنا أميل إلى أن أسميها ڤيتامينات النمو للأنواع البشرية ، ولـكن النظام ، وهو يا بنيتى العزيزة ليس حافظاً للأشياء فحسب وإنما هو كذلك موجد ومنشىء وهو الصورة التى يبدو بها كل ما يوجد ، والواقع أنه لا يمكن الاستغناء عن النظام لـكى يكون للحرية معنى على الإطلاق وذلك مثلما فى الموسيقى ، فقواعد الإيقاع لاغنى عنها ، والموسيقيون العظماء لا يحترمونها دائماً ولـكنها لازمة حتى لهم .

ڤولتير : إنى أعجب ببلاغة الدكتور جيتى حينما يتولى الدفاع عن طرق الرب ، ولـكنى أتهم الدفاع جميعه حتى إذا كنت لا أتهم المحامين ، والحقيقة هى أن تطور حياة الدنيا لا يذكرنا بتدفق النهر الهادىء فى السهول ، وإنما يذكرنا بفوضى الحرب الداخلية بين المبادىء المتناقضة وصراعها الشاق ، فليس هو توازناً متسقاً بين مختلف الميول والنزعات وإنما هو سلسلة من الزلازل يتبعها ردود فعل مستفظعة منـكرة من بحر الرجال المتلاطم .

واشنجتن : حقيقة أنها مشكلة محيرة ولـكن يجب أن يكون عندنا إيمان .

ڤولتير : إنى أحب الله القادر على كل شىء حباً جماً ، ولكن يلزم أن تسلم معى بأنه يفرض على إيماننا ضريبة مرهقة ، وهو على ما يبدو لى من بعض الوجوه كلف بالأساليب المسرفة الملعوبة فى إلقاء بنوره ، والمثلان من الماضى اللذان يحضرانني لا يبعثان على الآمال العظيمة فى المستقبل ، ولقد بذر اليونانيون بذوراً بارعة فائقة ، فقد اجتمعت لهم هبة العقل والاتزان والخيال الخالق وائتلفا ائتلافاً نادراً سعيداً وتوثقت الصداقة بين أبولو وديونيزوس ، ولكن الرب اختار أن ينثر هذه البذور فوق أوروبا بالمحراث الرومانى ، وهو اختيار وخيم العواقب ، فهؤلاء الغلاظ الجفاة العتاة بناة الإمبراطورية الفاسقون لم يخلقوا شيئاً ، ففنهم محاكاة وأدبهم من المرتبة الثانية ، وأساليبهم السياسية ليست مهذبة ولا مصقولة ، وقانونهم الذى أكثروا من المباهاة به قاس وحشى ، وقد بنوا طرقاً كثيرة ولكنهم كانوا يبنونها وعينهم شاخصة إلى الجيش ، ولم يكونوا فى أعماق نفوسهم سوى جنود .

نابليون : لقد علموا أوروبا التمدن .

ڤولتير : لم يعلموها التمدن وإنما علموها النظم الحربية ، وهذا هو ما انتهى إليه بحثى ، وقد غمسوا أوروبا فى لجة التوسع الاستعمارى والولع ببسط النفوذ وامتداد الرقعة محاكاة لهم وتشبهاً بهم ، ومثال قيصر — هذا المغامر الطياش الرهق — قد أضل

عقولاً أوروبيـة ، ومن بينها عقلك يا سيدى ، أكثر مما أنارت الحضارة الرومانية .

جيتى : لم تنصف إيطـاليا بوجه خاص وهى من معاقل العبقرية الأوروبية .

ڤولتير : أنا لا أتحدث عن إيطاليا ضحيـة الدولة الرومانية ، وحينما أشرقت إيطاليا فى سماء أوروبا كانت روما الإمبراطورية قد سحب عليها النسيان أذياله ، ولما عادت روما الإمبراطورية إلى الوجود عانت العبقرية الإيطالية كسوفاً .

ماری استيوارت : ولـكنك ذكرت مثالين

ڤولتير : آمل أن يحتملنى الإمبراطور ويفسح لى صـدره ، والمثل الثانى هو الحقبة النابليونية ، فقد ألقيت بذور جديدة — تلك البذور التى جمعناها فى القرن الثامن عشر ، وأصبحت تعرف باسم « أفـكار الثورة الفرنسية » ، وعاد الرب ثانيـة واختار لزرعها تلك الآلة المبذرة السادرة العاجزة المقصرة — الإمبراطورية الفرنسية الحربية .

نابليون : الدماء خير ماء تسـقى به الشقوق والأخاديد التى زرعت بها البذور التاريخية .

ڤولتير : الدماء يا سيدى روح ، ولا يجب أن تراق فى طيش وحماقة .

ماری استيوارت : الله أعلم يامسيو ڤولتير

قولتير : أنا أنحنى لعله الذى وسع كل شىء ، ولكن مع المعارضة والاحتجاج ، ولكى أصل إلى هدفى أقول إنى أخشى للمرة الثالثة أن يعهد الرب ببذور اليوم — وهى الإدراك العضوى للحياة الاجتماعية — إلى كارل الضخم ، الإمبراطور كارل ماركس الذى يجمع فى شخصه بين الإمبراطور والبابا ، والذى سيغرقها فى طوفان من الدماء البشرية .

كارل ماركس : لست حاضر أمرها .

قولتير : ولكن رجالك هناك ، وهناك واحد أو اثنان من الذين ينوبون عن الإمبراطور يهمان بأن يجعلا اللعبة تستحق ما أنفق عليها .

مارى استيوارت : يلزم أن أقول إن الأمور تبدو سيئة الطالع

جيتى : نحن نرى من الصورة ما يكفى لمعرفة أن لها معنى — لا ما يكفى لمعرفة معناها .

مارى استيوارت : ولكن حينئذ ؟

جيتى : حينئذ ، حسن ، لا أستطيع أن أعرف ، وغاية ما أقول هو أننى أشعر بأن اكتشاف الراديو فى هذه اللحظة يلزم أن يكون له دلالته ، فهذا الوسيط الذى يثير الدهشة يحكم الاتصال بين الناس فى التو واللحظة ، فهو مثل روح البشرية التى يستطيع الناس بأجمعهم أن تغتسل فيه وتتطهر وتشعر بإنسانيتها المشتركة .

فولتير : والموسيقى الصاخبة والغناء الخفيض وفن بيع البضائع

جيتى : نعم إن العامية الجـافية والروح التجارية تزريان به وتنقصان من قيمته ، ولـكن بالرغم من ذلك فإن روح الإنسان تنبض خلاله ، وتطالعك منه أخباره وآراؤه وآماله ومخـاوفه وأوجاله وأفراحه وأحزانه . . . وبالتدريج يتطهر من أرجاسـه ويسمو مستواه ، والتليفزيون سيجعله مرآة لحياة الإنسانيـة أصدق معروضـة أمام الإنسانية ، وهكذا متى تمثلت الإنسانية صورتها ضاقت باحتمال قبحها ودمامتها ، وعملت على الانبعاث إلى الجمال .

(وتملأ الهواء نغمات قوية متصاعدة من موسيقى موزار فى إحدى سيمفونياته ، فيصغى لها الجميع) .

جيتى : موزار فى حالته القدسية ، وهذا فى العادة ينبئ بوصول رسول من الرب ، وربما نسمع صوت الرب .

(تنتهى موسيقى موزار ، ويهتز الهواء بأنغام موسيقى باخ القوية الصداحة) .

جيتى : الظاهر أن باخ هو رسول اليوم ، الرب سيتـكلم

(الجميع يصغون فى خوف ورهبة) .

صوت الرب : هذا كما يمكن أن يكون

(الجميع يستحيلون سحابة نيرة ، وفجوة فى السحابة تشـير إلى الفراغ الذى اختفى فيه فولتير تاركاً بسمته خلفه) .

حاشـــية

[خاصة بآراء الرئيس واشنجتن عن العلاقات الخارجية]

الكلمات التي اختتم بها الرئيس واشنجتن المنظر الخامس متحدثاً إلى السناتور المجهول هي كلماته ، فقد كتب إلى المركيز دي لا روري في خطاب مؤرخ ٧ أكتوبر سنة ١٧٨٥ .

« أمنيتي الأولى أن أرى السلام يرفرف فوق العالم كله وأن أرى سكانه كعصابة من الأخوة يتنافسون أيهم عليه أن يقوم بالنصيب الأوفر في إسعاد الإنسانية » .

وفي خطاب إلى لافاييت مؤرخ ١٥ أغسطس سنة ١٧٨٦ كتب

« . . . باعتباري عضواً في دولة ناشئة وأحد أفراد الجمهورية الإنسانية الكبيرة فإنني لا أستطيع أن لا أوجه التفاتي في بعض الأوقات إلى هذا الموضوع ، وسيكون مفهوماً أن معنى هذا أنني لا أستطيع أن أتجنب التفكير بسرور في التأثير المحتمل أن يكون للتجارة في العادات الإنسانية والمجتمع بوجه عام ، وفي هذه المناسبات أجيل النظر في كيف يمكن أن يرتبط النوع الإنساني كأسرة واحدة بروابط الأخوة ، وأنا متعلق بفكرة ربما كانت فكرة حماسية ، وهي أنه لما كانت الدنيا كما يبدو أقل همجية بكثير مما كانت فإن زيادة تحسن الأحوال بها يلزم أن تكون مطردة

التقدم وأن الأمم فى سياستها تزداد إنسانية وأن دواعى الطموح وأسباب التناكر وبواعث الخلاف آخذة فى التناقص شيئاً فشيئاً ، وبإيجاز أن العصر الذى تخلف فيه مزايا التعادل الحر الأخوى فظائع الحرب وتخريبها ليس ببعيد[1] »

وآمل بذلك أن أكون قد ظللت فى حدود المشابهة القريبة من الحق بإعارتى واشنجتن آراء تتسق مع الآراء التى عبر عنها فى عصره وكان يسبق بها زمنه كثيراً ، ولاشىء أقل إنصافاً لذكراه من المحاولة المعاصرة لتحويل هذا الارستقراطى الدمقراطى العالمى العقل إلى دعاجوج قوى من القائلين بالمساواة .

---

(١) اقتبسها النبيل البرت د . توماس سناتور ولاية أوتاوه فى خطاب ألقاه فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٣٢ . وهذا الخطاب البارع جميعه جدير بأن يقرأ كلما أثير الموضوع الذى يدور حوله الجدل الخاص بآراء واشنجتن وماذا يجب على الولايات المتحدة أن تعمله ، وهو خطاب له قيمته من وجهة السياسة وناحية الدراسة . (المؤلف)

فهـــرس

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

